تسجيل دخول

رواية

الفاروق العمري

تسجيل الدخول

أدباء 2000 للنشر و التوزيع

تسجيل دخول

الفاروق العمري

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني محفوظة للناشر.

رواية / تسجيل دخول

الكاتب / الفاروق العمري

الناشر / دار أدباء 2000 للنشر والتوزيع.

ت. محمول / 01099654718

البريد الإلكتروني / Odabaa2000@gmail.com

تصميم الغلاف/ محمد علي

تصحيح لغوي/ محمد فايز المرسي

****

الموقع الإلكتروني لدار النشر:

http://entashaaer.wix.com/odabaa2000

الصفحة الرئيسية لدار النشر على موقع Facebook:

https://www.facebook.com/Odabaa2000

عندما تبدأين بالقراءة .. تذكرى أنى اراقبك

في تلك القاعة الزرقاء، يرقص الرجال والنساء سوية طربا على انغام الحب، بعد هجران طويل لتلك القاعة دخلت اليها ، كانت جالسة تنتظرني على الكرسي المعتاد ، لطاما جلست عليه انثى قبلها لكنها هذه المرة كانت تملئ المقعد فتنة وهيبة ، بفستانها الاسود وكتفها العاري هذا ما اكتفت ان يغطيه القماش اما الباقي فقد تكفلت الفتنة بتغطيته، على الرغم من مفاجئتي كنت مستعدا لها ، كيف لا وانا سيد القاعة رقصا وطربا ، فكرت انها ستكون فرصتي لأجعلها قصتي الجديدة ، غير مدرك اني سأكون خاتمة القصص عندها . اردت ان اجعل رقصتنا مختلفة حتى لا تكون مملة كسابقها من الرقصات . رقصة من العمر .. هكذا اردتها . دعوتها للرقص :

ــ انا لا اعرفك ..

ــ ستعرفين معي الرقص ، انها هويتي لأثبت من اكون .

انغام القاعة الرتيبة كانت مرآة لقدمي ، والغريب انها لم تتعثر ، رغم اني اردتها رقصة صعبة ، اردت ان امارس معها القفز والانحناء ، اردتها رقصة يتوقف لها جميع الراقصين ، صعبة عنيدة ، مبهرة حد الجنون ، لكنها كانت بارعة جدا ، مما يوحي الي انني لست الأول ، لكن كنت احاول ان اكون الأخير ، رقصنا طويلا وفي كل لفة موسيقية خاطفة . كنت اكسر حاجزا بيننا .

كنت امارس معها متعة لا توصف ، كنت مختلفا ، شفافا ، لن اخدعها لكن سأملكها لكي تكون بصمتي على جبين قلبها دليل على إدانة يشهدها الزمن في محكمة الحب العتيقة . على ذلك الاساس دامت رقصتي معها احد عشر شهرا ، امسكت فيها زمام الامور بعناية ، كنت ارسم دروبها شغفا بالمستقبل ارسم خطوات قدمها على مزاج النبيذ الذي ارتشفه فتنة منها ، لكني تجاهلت غريمي الذي كان يلاحظنا من بعيد ، طلب يدها للرقص ، تريثت اول مرة و اكملت معي ، كان مصرا على ان يملك يدها ، مصرا على ان يكمل الرقصة للشهر القادم ، تجاهلت

خارطتي هذه المرة و اسقطتني على اطلال الانغام ثم انتقلت لتكمل رقصتها ضحكا معه . اما الرقصة الثانية فقد كانت سرا خارج القاعة الزرقاء .

****

قبل احتفال رأس السنة 2014 كنت قد هجرت برامج التواصل الاجتماعي كلها ، كنت قد ركزت اهتمامي على اليوتيوب واخر الاصدارات للألعاب والبرامج والكتب ، المحاضرات التنموية وكل هذا كان يأخذ من عمري مأخذ واسعا بلا وعي ، لا اعلم يومها لم اردت ان اعيد ايام الفيس بوك و فتحت حسابي القديم الذي تم اغلاقه بعد قطع علاقتي ب(شروق) الفتاة العنيدة التي عشت معها فترة من العمر .

فتحته بعد منتصف الليل وكالعادة لا رسائل ولا اشعارات فقط طلب صداقة . وافقت عليه وارسلت رسالة لصاحبة الطلب

ـــ مرحبا .. كيف حالك ؟

ـــ مرحبا .. انا بخير آسفة لقد بعثت الطلب خطأ ..

ـــ وهل هناك مشكلة ان تعرفت عليك ؟

ـــ كلا ليس هنا اي مشكلة .. انا ريم وانت ؟

ـــ فارس .. واين تسكنين يا ريم ؟

ـــ شارع ابو طيارة في بغداد وانت ؟

ـــ الاعظمية .. وهل تدرسين ؟

ـــ ااه رجاءًا لا تذكرني بهذا ، انا في المرحلة الثانوية الاخير واعاني من صعوبتها ما يفوق طاقتي .. وانت ماذا تدرس ؟

ـــ طالب هندسة بناء في جامعة بغداد .

ـــهذا جيد لقد انتهيت من الثانوية المزعجة .

ـــ نعم فعلت ، وسوف تنتهين انت ايضا فقط يحتاج الى صبر .

ـــ لقد تعبت لا احتمل اكثر .

ـــ الصبر يا ريم انها البداية فقط ..

ـــ و كيف ستكون نهاية الطريق ؟

ـــ اما النجاح او الانتحار . قلتها مازحا

ـــ اظن ان الخيار الثاني يليق بي

ضحكت ثم استأذنتها بالرحيل لضرورة القيام باكرا في الصباح .

بعد المحادثة الاولى الكل منا يحس بنشوة الانتصار ، هكذا كان احساسي بعد ان عرفتها كفريسة جديدة .كان اليوم الاول بيننا قصيرا ، بدت تلك الشاشة الزرقاء مسرحا ينتظر صعود الستارة ليبدأ فصل الحب الاول ، التعارف .

كان فصلا مع بعض الحدود المرسومة بيننا التي سوف أكسرها لاحقا بالتفافة من رقصة التانجو . كانت كلماتها رتيبة ، احسست للحظة انها تعرفني ، احسست انها تريد ان تنتقم لأنثى قبلها كان لها حضورا في خاطري ، لذلك كنت متحفظا في البداية لأكشف ما يقربنا بعد ايام .

كان في خاطري يجول اثناء المحادثة خوف واحد و ما هو شكلها ..؟

فوبيا الجمال كانت تستملك جميع جوارحي لكي لا اصاب بصدمة بعد امل قصة جديدة .

المؤسف ان طلب الصورة لم يكن من ضمن اولوياتي كطرف ذكري ، لكني كنت اتبع طرق اخرى نادرا ما تفشل ، كنت احاول ان افرض عليها نزول ساحة الحب بجمالها ، ان تفرض جمالها على ارض المسرح ، لكني يجب ان اتبع مبدأ الثقة الذي يجب زرعه في عقلها ، لكن من التي ستثق برجل شرقي مارس الحب على المسرح حتى مل وجوده .

قررت ان اجعل موعدنا الدائم بعد منتصف الليل ، كنت دائما اتخير المحادثات القصيرة والاوقات التي يثمل بها القمر .. بعد منصف الليل . مارست معها طب الحب لكن لم اكن اعلم انها تمارس معي حياة الحب .

****

صرنا نتكلم كل يوم تقريبا ، بعض التفاصيل قد تم اخفاؤها لتكون موضوع لحديث ليوم اخر ، كنت ادخر مواضيع اخرى لأحدثها بها في اليوم التالي حتى لا تمل وجودي او تعتاده ، اردت ان اطل عليها بكل يوم بشيء مختلف عن سابقه ، اثناء اغلب الاحاديث كنت احاول ان عرف عنها اكثر ، كانت الجانب المشرق من العلاقة . وانا كنت الجانب الغامض منها ، لم تكن تعرف عني كل شيء فقط ما احتاج ان تعرفه ، كان قد مر على علاقتنا احد عشر يوما ، اردت ان اكسر الحاجز الاول وهو حاجز الصوت .

احب ان تكون طلباتي في شيء من الذوق حتى يصعب عليها رفضها حياء من ادب الطلب ..

ــ هل يمكننا ان نطور العلاقة فيما بيننا ؟

ــ نعم ذلك ممكن .

ــ ما رايك ان اسمع صوتك ؟

لم تكن تملك الرفض ، كنت لا اطلب سوى ان اعبر سورا فاصلا يخلق بيننا شيء من الخوف ، ان اتقدم خطوة نحوها ، وافقت وقررنا ان نتكلم بعد ساعة ، لكن على الفيس بوك ، لم تفصح عن رقم هاتفها ربما خوفا مني ، هذا ما اعتقدته ، لكن ذلك الخوف لن يدوم طويلا ، بعد ساعة من الان سوف يبدأ موسم جديد من تلك العلاقة .

عندما اتصلت بها لم يكن صوتها مرتجفا ، كانت تملك من الرصانة ما يزيدها فتنة رغم تخفيها خلف تلك التكنلوجيا ، كنت اتحسس جمالها كأعمى يرى الجمال ويصفه بكتب دون ان يبصره ، لكن يبقى لدى ذلك الاعمى خوف من الابصار فيرى ما كان يصفه شيئا لا يستحق ان يذكر حتى ، دام حديثنا خمس ساعات تقريبا ، حتى وقت الفجر كان الاعجاب سيد الموقف ، ارادت ان تعرفني الى اي مدى غارق في فتنتها ، لكنها لم تعلم كل شيء ، فالعادة اقتضت ان يختفي نصف الكلام بضحكة او صمت او سؤال في غير موضعه ، "انت لا تضحك " فاجئني سؤالها فانا فعلا لا اضحك في المكالمات الهاتفية ، لعلها كثرة التعود على التحدث او تصنع الحزن الراقي الذي يعتلي اولاد آدم ، " انا اضحك سرا لأعيش نشوة الضحك وحيدا " . ازعجها جوابي لعدم مشاركتي معها الضحك حتى لو كان مجاملة .

كان من بين حديثنا اليومي صمت مقدس خلف كواليس جعجعة الكلام ، ذلك الصمت هو ما نخفي فيه نصف الحقيقة ، وربما اكثر من النصف . كان الصمت اكثر ما نفكر فيه بعد ان نغلق سماعة الهاتف ، لنعيش السكوت مع الخيال ونملئ الصمت بما نشاء من كلام اردنا قوله او سماعه ، كنت ارتشف من صمتها ذاك روعة وجودها . كيف دارت الارض لتجمعني بها ، من غير استبيان للملامح كنت ارسم لها من الظلام صورة تحيط بها سراديق فتنتها بعقل يشوبه خيط من الهلوسة .

مع كثرة اسألتي عن حياتها لم يكن في عالمها ما هو مثير عدى وجودها فيه . كانت الغرابة تطرق بابي احيانا بسؤال ، كيف لا يحس من حولها بروعة وجودها ، كيف تكون رائعة الى هذه الدرجة

ومن ثم تخفي روعتها عن من حولها ، علمت ان هناك شاب سبقني اليها لكنه اخطأ مع فتنتها فرفضته .

كان يعاود الكرة معها طمعا بفرصة جديدة لكنها تعاود نفس الرفض لكي تخبره ان الفرصة الاولى كانت اخيرة له وقد خسر ميدان الحب معها . احيانا تشكوه الي ، وانا اكون اذن تستمع اليها ثم حلول طبيعية تصب في تصرف واحد هو التجاهل .

بعد فترة من الحياة معها قرابة الشهر ، قرر اهلي السفر الى البصرة من اجل ما نسميه (تغيير الجو) ، اخبرتها اني مسافر وقد لا اجد هناك فرصة للتحدث معها ، اجابتني مستاءة انها سوف تنتظرني ريثما اعود ، بصراحة كنت اكذب هنا ، اردت ان اعرف هل تفتقد وجودي ام لا وعلمت من خلال صوتها وجوابها انها قد تشتاق الي ، قد .. حرفان يغيران مزاجي طول السفر لكنني سوف اجرب هذه المرة ، لعبة المشاعر كنت اعشقها ، كنت ادرس خبايا نفسها لكن بدون علم ان المنهج التدريسي هي من كان يشرف عليه .

كانت سفرة جميلة ، ملأناها حيوية وحبا وحركة ، ذهبنا الى منطقة صحراوية للعب و التنزه ، البراري اللانهائية اجمل ما كان في البصرة ، بعد التخريب الاستعماري لها . للحظة سؤال يسري بين عروقي ماذا لو تحدثت الارض ؟ ماهي اللغة التي يمكن ان تخرج من فم الارض ، الزلازل والبراكين والصمت في افق البراري اللانهائي كان جزءا من تلك اللغة . كل كائن على الاض ان يضع بصمة التي تشهده له امه الارض بها ، عندما تعلم النسان الدفن تعمله بعد جريمة ارتكبها ، منذ اول ضهور للإنسان افتتح عصره بجريمة قتل ، عندما بسط يده الى اخيه ليقتله هكذا بدا ثم منحته الارض الدفن ، اخبرته انها سوف تحتضننا حتى بعد الموت ، انها الام التي تحتضن اولادها حتى العاق .

كانت هذه الام تأبى ان نخرج منها حتى عندما يبغي بعضنا على بعض ، لا تكون الهجرة الا في زواياها ، وتؤدبنا في كل مرة لتنشأ حملة تطهير للجنس الباغي على الاخر و منذ اول عصر جيولوجي كانت تنشأ حملة انقراض لبعض الاجناس لتخبرهن انه لا مفر منها .

في سنة 1919 حدث وباء الافلونزا ، رغم كثرة المصائب والكوارث التي تحدث للبشر لكن هذا يعد الاقوى بينهم حيث حصد ما يقارب ال100 مليون شخص ، تأديب جديد من الام انشأت حملة تطهير للجنس البشري من بين الاف الحملات الاخرى ، بعدها بأعوام وفي نهاية القرن العشرين ظهرت فكرة تطهير للبشر من صنع البشر ، كان اكثرنا يخاف فكرة ان يزداد العدد البشري فلا تكفينا الموارد ، بعضهم تكهن ان الارض لو وصل تعدادها الى ال10 مليار نسمة لن تكفينا الموارد وستتم عملية انقراض للجنس ، فقرر البعض صنع وباء يشبه الافلونزا ، او يشبه الطاعون الذي حصد ثلث سكان اوروبا في عامين فقط ، وهذه التضحية لن تشمل رجال الاعمال والسياسيين و الناس الاكابر ، انها تشمل فقط الناس الفقراء ، وهذا ما يفسر ضهور الكثير من الامراض في جنوب افريقيا وحدها .

لنعد الى حديث الارض ، في برنامج المواهب الروسي ضهر رجل يملك موهبة غريبه ، قال في عرضه المسرحي ، ماذا لو تحدثت الارض ؟ الكلام فيه شيء من الهلوسة او التخريف و لكن عندما بدأ الرجل بتسجيل اروع اسطوانة موسيقية في الكون سمعها من امه الارض ، لكأنها كانت تغني له عند نومه فيها ، اوبرا صوت الارض هذه اسكتت جميع الحضور ، يجبرك ان تسمعه لتعلم ان الارض هي اكثر من مجرد فضاء ، هذا الابن الذي اعطته الارض شيئا من الموهبة التي يشوبها جنون نادر ، كأنه جاء من البراري الافريقية عاريا لم يستطع ان يفارق ذلك العالم الصاخب بالحب للحياة .

جلسنا على الغداء ، كان خالي ضابط سابق في الجيش ، خدم في عدة حروب ونال عدة اوسمة كان المكان الذي نتنزه فيه موقعا سابقا للجيش وحدثت فيه عدة مناوشات مع العدو ، بدأ

خالي يسرد علينا اخبار المعركة التي حدثت اثناء تناول الطعام اشار الى خندق كان قريبا منا قال : كنا نختبئ بالليل والنيران تشتهي ان تلتهم كل شيء لكن الموت كان اسهل ما نلاقيه ، كان رعب الحرب والجثث اقوى من الف موت مجتمع ، اذكر اني كنت مع صاحبي "حسين " خلف الساتر ننتظر ان تهدئ النيران كي نتقدم ، لكن النهار قد اشرق بنيران القنابل وليس بالشمس ، جلسنا انا وحسين مرة نتكلم قال حسين " ــان الموت يا ابا محمد قريب منا ، ما رايك ان نشتهي شيئا الآن عسى ان نلاقيه خلف هذا الساتر . ضحكت ثم قلت :

ــنعم ، عسى ان نلقاه بصراحة يا ابا علي اشتهي السمك . لم نتعود ان تمر علينا اشهر في الجبهات بعيدا عن السمك بعدما كنا ناكله يوميا .. وانت ، ما تشتهي ؟؟

ــ اشتهي .. هه ، اشتهي زوجتي . اي ابا محمد ، لن اخفي عنك انني اشتاق اليها ، بسبب العدو الملعون لم امكث مع زوجتي غير شهرين ، انا عريس جديد كما تعلم ، تزوجتها عن حب وتركتها عن ضرورة ، وعلمت انها حامل ، بيني وبينها تلك الدبابات والحروب ، بيننا كل تلك السواتر التي تضج بالعدو علي ان اعبرها لكي اصل الى زوجتي على طبق من تراب الوطن ، صدقني يا ابا محمد انا لا اقاتل الا لكي اعود اليها ..

ــ لم لا تأخذ اجازة بحجة انك مصاب او اختلق لك حجة لكي تعود اليها حتى لو كان وقتا قصيرا .

وضع سيجارة في فمه ثم قال : كلا سوف اذهب اليها وانا جدير بها ، لن ترضى بالغش ابدا . اشعل سيجارته . سكت انا للحظات ثم مشيت لأحضر الماء لحظات ثم سمعت صوت صافرة الصاروخ ، صوت اختراقه للهواء لينثر صاحبي ، حدد العدو موقعنا من نار سيجارته ولا يزال يشتهي زوجته التي اراد ان يلاقيها هناك ، وانا اكل اليوم ما اشتهي . رفع نظره الى السماء ثم قال:

ــهناك فرق بين السمك والحب .. فرق كبير .

كان خالي شديد الحزن من تلك الحادثة ، كان يذكر ايام الحرب كثيرا ، اسوأ اوقات التعارف هي التي تكون في تلك الاوقات ، لأنك قد تفارقه او يفارقك . وكلاهما مؤلم .. ما اقسى الحروب . التفت اليه ثم نطقت : وهل يستحق موته ذاك يا خال ؟؟

ـــ اتعلم ؟ كنت افكر احيانا بنفس ما تفكر به يا فارس .. كما نرى الان ان الارض ضاعت رغم ضياعهم . لم نكسب الارض ، ولم نكسب الروح ، لكنهم سعيدين بذلك ، لهم الشرف ، ولنا المصيبة والعزاء ، الفراق يا فارس لا يوجع سوى طرف واحد .

****

بعد يومين من سفري ومن الانقطاع عنها وانا انتظر محترقا اتصالها ، اتصلت خلسة مع شيء من الوحشة ، علمت خلالها انني كسبت النقطة في هذه الجولة ، تكلمنا لوقت قصير ربما كانت الساعة التاسعة ، سألتها عن اخبار دراستها وماذا فعلت في غيابي ، عشر دقائق ثم اخبرتني انها مضطرة للرحيل ، اخبرتها ان تنتظرني بعد منتصف الليل ، الموعد المعهود بيننا ، قالت "سأحاول" .

تحاول ؟؟ انها تشتاق إلي ومن المفترض انها تخلق الوقت كي نتكلم ، لكنها وضعت العكرة في يومي بكلمة واحدة ان شوقها يعتمد على المحاولة فقط ، تعاهدت ان انتظرها تتصل ، وبعد منتصف الليل كنت سهرنا انتظر اتصالها ، كأنني مدمن على المخدرات منعت عنه ، رغم معاهدتي لنفسي ولأول مرة قطعت العهد ، واتصلت بها .

لم تسلم علي بل قالت :

ـــ كنت انتظرك .

النقطة الثانية كانت من صالحها ، اعطتني شيئا من التقدم نحوها ثم اكتسحت عالمي بجيش من الخطوات نحوي ، تعلم اني طامع بها لذلك لا تعطني الا القليل اما الباقي علي أن احصل عليه بنفسي حربا مع الكبرياء .

ــ تنتظريني وانا انتظرك .. كيف حالك ؟

ــ بخير ، الدراسة متعبة حقا هذه الايام ولكن هناك خبر مفرح .

ــ ما هو المفرح يا ترى ؟

ــ هناك سفرة مدرسية الى الحدائق بعد غد ، وامي وافقت ان اذهب .

ــ هذا جيد ، مجال للفسحة والفرح بعيدا عن جو الدراسة .

ــ نعم ، لكن اخاف ان تغير امي رأيها .

ــ لا تخافي فقط تحضري لهذا اليوم .

ــ حسنا .. وانت ماذا فعلت في هذه الايام ؟؟

ــ لا شيء سوى اني ذهبت الى البراري وقضينا وقتا ، لكن الفرحة كانت ناقصة لعدم وجودك فيها .

ــ هذا صحيح الحياة بدوني مملة ..

ضحكت على قولها ، لكنها كانت محقة وانا لم اكن اكذب .

بعد ان تكلمنا واغلق الليل سماعته ، فكرت لو كنت ببغداد الان لكنت قد ذهبت اليها لكي اراها ، فكرت ان الوقت قد حان لكسر اخر عقدة بيننا ، الشكل الخارجي ، لكن كنت اخاف من الصدمة التي قد تحصل ، مع ذلك فكرت أن الوقت قد حان وانني ممكن أن أنهي كل شيء

بسهولة كما في سابقها من العلاقات . مع ذلك انا لست في بغداد الان ، بقي في جيبي رصاصة واحدة ، صورة لها . المكالمة القادمة يجب ان تكون مختلفة .

****

كانت تقول بلهفة ما لا يقال

كانت تخبئ حرفها .. ليكون من حرفي السؤال

كانت براءتها تكذب واقعي

حتى يكون الصدق كل الصدق من نسج الخيال

بعد يومين عدنا الى بغداد ، كان هو اليوم ننفسه الذي خرجت فيه ريم الى الحدائق ، كنت قد قررت ان اطلب منها صورة لها ، اول كسر لبروتوكول التعارف عندي ، لكني لا اكسر شيئا الى لأحصل على ما هو اهم ، خصوصا انني حاولت جاهدا ان افرض عليها نزول الساحة بلا حجب عن الشكل ، لكن محاولاتي لأول مرة كانت سيئة وغير مجدية .

صادف انه كان يوم سبت ، وصلنا الى بغداد عند الظهيرة ، كان الطريق متعبا لكن لم يكن هناك ازدحام داخل بغداد لحسن الحظ ، قبل وصولنا بنصف ساعة اتصل احد الاصدقاء بأخي ليخبرنا ان عبد الرحمن مخطوف من جهة مجهولة ، وهم يبحثون عنه منذ البارحة ، كان الخبر كافيا ان يعكر علينا فرحتنا لباقي اليوم . حال وصولنا الى البيت بدأنا نتصل بالمعارف والاقارب الذين يعملون في الجهات الامنية عسى ان يفيدونا بشيء عن عبد الرحمن لكن الكل قال : لا يمكن ان تعلموا شيئا بهذه السرعة ، كل شيء سيتضح بعد اسابيع .

" لست في اوروبا " .. هذا هو جواب كل سؤال يبدأ ب" لماذا ؟؟ " . جلسنا نتكلم حول عبد الرحمن واين ممكن ان يكون . ومن الذي اختطفه ، " اين كان البارحة ، اين ذهب ومع من "كل هذه التساؤلات ، لكن من يا ترى قد يجيب فلا احد يعلم عنه غير انه ذهب الى المقهى المجاور كالعادة ولم يعد ، والذين في المقهى قالوا انه غادر مبكرا . وكأنها قصة لأجاثا كريستي تحتاج الى محقق ماهر يكشف جوانب الحقيقة من دقائق الامور ، لكننا لسنا في اوروبا .

كان ذلك اليوم صاخبا بالحزن والاتصالات ، لم يتوقف هاتف الا ليرن الاخر ، جلست و اخي على عتبة الباب بعد ذهاب الاصدقاء ، اشعل اخي سيجارته ثم قال : كلما قررت ان اترك التدخين تصيبني الدنيا بحزن يعيدني الى محبوبتي .. السجائر . ترى اين هو الان ؟

ـــ الحزن بيننا دائما يا هاشم ، لم يكن يوما متخفيا .. اذا كان تركها معلق بالحزن فاليأس اقرب لك.

ـــ لا يبدو عليك الحزن ابدا ، هل لأنه لم يكن مقربا منك كثيرا ؟؟

ـــ بالعكس ، لطالما احببته ، انه شاب مسكين يبحث عن عمل لشهور ولم يجد .كالعادة بعد تخرجه من الجامعة عاطل مثلك الان .

ـــ لكن عبد الرحمن لم تكن له مشاكل مع اي احد ، لا في المقهى او في الجامعة او حتى في الشارع . يعني انه لا يملك عدو ابدا ، الناس تحبه حقا .

ـــ لم يعد العداء والضغينة سببا ، البارحة هو وغدا انا او انت . هذا هو الواقع الان ، نحن في دولة تحكمها العصابات ، والتطهير ينشأ بعداء عام وليس شخصي .

ـــ صحيح .. حسنا لننتظر القادم عساه ان يكون اجمل . والخير فيما اختاره الله .

ـــ هيا لندخل الهواء بارد .

في منتصف الليل كنت سهرانا افكر بالحال عندما رن جرس الماسنجر برسالة منها .كنت قد غفلت عنها ذلك اليوم لكنها لم تنس الموعد المعتاد .

فتحت الرسالة .. : كيف حالك ايها الغائب ؟؟الحمد لله على سلامتك .

ـــ بخير الحمد لله وانتِ كيف كانت سفرتك اليوم ؟؟

ـــ جميلة جدا .. لم اترك شيئا في نفسي الا وفعلته ، انها رحلة من العمر ، حتى ان ابن خالتي جاء الينا وقابلني هناك .

ـــ هذا جميل في المرة القادمة سوف آتي انا اذا .

ـــ ماذا ؟؟

ـــ نعم سوف آتي انا ، ليس ابن خالتك وحده من يستطيع ان يأتي لي الحق انا ايضا .

ـــ حسنا ، حسنا .. عندما تكون هناك مرة ثانية .

تكلمنا لساعة ، ربما اكثر ، لم ارغب ان تشعر بي انني متضايق من امر ما فأنا لا اطلب الرحمة في العلاقات العاطفية ولا ارغب ان اكون محط رحمة من احد ، لذلك احترفت التمثيل ، الكذب المتقن ، العشق الاعمى الذي يكمن في الكلمات ، لن تشعر يوما انني لم احبها ، ولن تستطيع مهما فعلت ان تحزر ما الذي كان في عقلي اتجاهها ، اغلب ما تسمعه هو كذب مصدق ، اصدقه انا اولا ، ثم املئ الساحة فيه فلا ترى غيره . ان ما كان يميزني في الكذب هو انني اتذكر كل شيء ، كل التفاصيل التي احتاجها ، انني احس ان كذبي يتحول الى حقيقة ساعة ان اقوله ، ان روح الصدق تنفخ فيه ، ذلك الكذب الذي لا يكتمل جوانب العاطفة بدونه ، كان من الضروري ان اكذب ، ذلك هو سبب كونها لا تعلم عني سوى ما اردتها ان تعلم ، وما اريدها ان تعلم هو انني لا اتكرر ابدا .

****

بعد اسبوع وفي صباح اليوم انطلقت الى الجامعة مبكرا كانت محاضرتي الاولى في وقت مبكر وعلي ان اصل في الوقت المحدد . قابلت مصطفى والاصدقاء " الشله المعتادة " دخلنا الى المحاضرة لدكتور عادل ، كانت محاضرة رياضيات ، وقتها كنت شارد الذهن جدا ، لم يكن عقلي مع الدكتور ولتجنب الاحراج جلست في المقعد الاخير .. على غير العادة .

في الجامعة لم اكن مجتهدا جدا ، كنت طالبا متوسط الدراسة ، اقرا احيانا ، واترك اخرى . كنت اجتماعيا لحد ما لكن ليس مع الجميع ، هناك من اكرهه حد العمى كما يقال ، وهناك من علاقتنا طيبة .. وهذا ينطبق على كلا الجنسين .

كانت المجموعة في الجامعة تتكون من 7 اشخاص جميعهم ذكور ، جنس الانثى لم يكن له حضور بيننا ابدا ، نادرا ما تقف فتاة بيننا لغير سبب ، كنا نتظاهر ان ذلك يزعجنا لعدم الاختلاط بهن ، لكن الحقيقة هي العكس .

بعد انتهاء المحاضرة ذهبنا الى اقرب مكان لنأكل و لدينا نصف ساعة فقط قبل ان تبدأ المحاضرة الثانية ، ومن الممكن ان نتغيب عن المحاضرة الثانية لكن مزاجي لم يكن يحتمل اي شيء ذلك اليوم.

تكلمنا ، اكلنا ، ثم حان وقت المحاضرة ، ذهبنا الى القاعة اخبرتهم انني سأنتظر حتى تمتلئ القاعة ثم ادخل ، جلست اقلب دفتري واستذكر المحاضرة السابقة ، جلست بجانبي ليلى زميلتي المقربة.

ــ لا تبدو على ما يرام يا فارس ؟؟ هل هناك خطب ما ؟

ــ لا شيء سوى صديق مريض ، حالته خطرة قليلا وبالي مشغول به .

ــ المسكين ، شافاه الله ، قل لي ما اخبار الحب معك ؟

قطبت حاجبي استغرابا من ما قالت : اي حب يا ليلى ؟؟

ــ اتعلم ، قرأت مرة في كتاب ان الانسان اذا احب احدا يبدا يطلق اشعة حوله ، قد تظهر في بعض الاحيان ويكون اكثر جاذبية من غيره .

ــ وهل تجدينني اكثر جاذبية الان ؟؟

ـــ لا يا غبي .. مجرد انك تسرح كثيرا ، وتتأمل كثيرا وعقلك ليس معك . هذه الاسباب اجدها افضل من جاذبيتك .

ـــ اظن انه بسبب التعب .

ـــ السبب الابله الذي تتحجج به ليس جديدا .

ـــ ما الذي تريدين الوصول اليه ؟

ـــ الفضول اخبرني عنها ارجوك ، السنا مقربين ؟

ضحكت على كلامها ، لم اكن اعتقد انني قد افضح بسهولة من اول فتاة مقربة ، لم اعد احتمل الاعيبها لذلك اخبرتها : ليس حبا ، انها صداقة .. نعم نسميها صداقة ، تعرفت عليها في الفيس بوك وليس هنالك امر غريب غير انني لأول مرة .. معجب بها .

ـــ هل ستعود الى الاعيبك السابقة يا فارس ؟؟

ـــ لا اعلم ما الذي اريده ، لكن لا اظن انني سأعود الى الاعيبي السخيفة تلك ، انا لم اعد مراهقا .

ـــ حسنا ، هيا المحاضرة ستبدأ ، لقد جاء الدكتور .

كان بحديثي معها راحة افضل من السكوت ، شعرت بان التوتر زال عني قليلا . جلست معها في الصف الاول كانت المحاضرة مملة كالعادة ، عندما انتهت سحبتني ليلى من يدي ثم قالت : لنذهب الى الكافتريا لتكمل لي قصتها .

ـــ اي قصة ، ارحميني ليس لي قلب لألاعيبك هذه .

ـــ هيا هيا لم اعرف سوى القليل .

انطلقنا الى الكافتريا ، جلسنا وتكلمنا كثيرا ، وكالعادة كذبت قليلا اخفاءً للحقيقة ..

قرأت مرة حكمة في احد الكتب ان النساء تعشق الكذب ، تحب تزوير الحقيقة وتشويشها ، تضيم الامور ، تعشق الشخص الغامض ، لذلك تحب الكلام كثيرا ، عن نفسها عن جمالها حتى لو علمت كل العلم انها قبيحة لكنها تحب ان يكذب عليها .

حاولت بعدها ان اغلق الموضوع بسرعة لكنها مصرة على ان تعلم كل شيء وان مضطر لان اجيب ، ثم خطرت في بالي فكرة : ماذا لو تعرفت عليها يا ليلى ؟؟ .

ــ ماذا ؟؟ هل جن عقلك ، ولم قد تعرفني عليها ؟

ــ مجرد ان انتهي من فضولك هذا ، وعلى الاقل اكون مطمئنا من صديقتها .

ــ وماذا لو اطمئن قلبك من صديقتها ؟ لم لا تختصر لي الموضوع بلا دوران .

ــ حسنا سوف اقول لك احدى الاسرار .. اذا اطمئن قلب الشاب من صديقة حبيبته ارتاح باله ، فليس هناك من يحشي برأسها كلام المشاكل بين الطرفين ، كلنا نعلم ان اكثر اسباب المشاكل بينهما تكون بسبب الصديقة ، ليس عليك ان تقولي عني شيئا جيدا ، لكن لا تقولي عني ما ينفرها مني .. ما رأيك ؟؟

ــ حسنا سأفكر .. ولكنك لن تجبرني على فعل هذا كما في المرة السابقة .

ضحكت عاليا ، ثم قلت :

كلا كلا انت حرة لوجه الله لن اضغط عليك .

ــ حسنا استاذ فارس لنرى ..

انهيت كلامي مع ليلى ثم خرجت من الجامعة الى البيت .

عند دخولي الى البيت وجدت اخي جالسا متأملا السقف ، كأنه لم يره من عام ، او انه شاهد طيفا في ذلك السقف ، لم يرد على سلامي ، شرود ذهنه في مصيبة صاحبه الكبيرة ، لم ارغب ان اقطع عليه تأمله بسؤالي المعهود ، لكنه كان قد احس بدخولي وشعر بتأملي وجهه وغرابة نظراتي ، نطق بشيء من الثقل : مكان عبد الرحمن في سجن الشعبة الخامسة ، لقد جاءت اخباره من قريب له يعمل هناك .

ــ وهل هذا جيد ام سيئ ؟؟

ــ الجيد اننا عرفنا مكانه ، وانه حي يرزق ... والسيئ انه في ابشع الاماكن واشدها تعذيبا في البلاد . اتخيله يتمنى الموت مرارا كل لحظة يا فارس .

ــ وما الذي سنفعله ، اليس لنا اقارب تعمل هناك ، الا يمكننا ان نتصل بأحد ليخرجه او يفعل له اي شيء .

ــ اتصلت بأصدقاء لي يعملون هناك ، لكن الجميع يقول ان التحقيق في ذلك السجن فيه شيء من السرية ، ولا احد يتدخل بأحد والكل يخاف .

صدمة اخرى ، عرف سجن الشعبة الخامسة بوحشية التعامل هناك ، عرف بالظلم وانه لا يدخل له برئ الا ليخرج مجرما قتل وسلب ونهب ، للحظة قد تفكر في امرك عندما تزج بعد ايام في ذلك القبر الموكوس ، الشعبة الخامسة ، ماذا ستكون تهمتك ، انك قد تعترف على قتل جارك وجارك لم يمت بعد ، اي حياة هذه التي تسلبك حرية الحياة ، اننا نحتاج الى اعادة هيكلة للحياة من جديد ، اما الامان ، فاذا كانت الغاية من السجن هو حبس المفسدين وصرفهم عن العالم الخارجي ، وتأديبهم ، هل من المعقول بعد اعتقالات الملايين لا يتحقق شيء من الامان ، بل ان الانفجارات والخروقات الامنية على مرأى من العين ، بلا اي توقف ، هل من المعقول ان يكون الشعب كله مجرم ، كلا ... مشكلتنا اننا احياء ، ولا حق لنا بذلك .

عندما تتعدد الاطراف ويبغي طرف على طرف ، سيكون ساعتها كل شيء مباح ، لا للحدود القانونية مادام القانون لا يحترم ، هذا اذا وجد القانون اصلا .

****

بعد الرابعة عصرا ذهبت الى احدى المقاهي المجاورة ، لم تكن من عادتي ان اجلس في مقهى او اي مكان عام ، لكن رغبتي هذه المرة ان اهرب من المنزل فقط ، اردت ساعة من اللاتفكير احلق فيها بهدوء ، منذ ان حصلت مصيبة عبد الرحمن ونحن في خوف من الغد ، ما الذي سيحصل ، المشكلة اننا نعيش في عالم الرعب من المجهول ، قد يكون الموت او الحبس او اي شيء من هذه اهون علينا خوفا من المجهول ، لن اسميها غابة ، فللغابة قوانينها التي تفرض على الجميع بالفطرة ، لا توجد اساءة في الغابة بدافع الطائفة او العرق او اللغة ، لن تحارب الغابة الافريقية حيوانا جاء من آسيا ، اما هنا فالحياة كما فرض الوجود ، كل منا له وجوده وعليه ان يحافظ عليه ، وليس على المقابل حرج ان اراد فرض وجوده ، من الممكن ان ننقرض بعد اعوام ، ونسمى كما يطلق للديناصورات ، كائنات عاشت هنا منذ زمن .

كانت هذه فطرة الانسان من اول وجوده ، منذ زمن كانت هنالك حيوانات انقرضت حالما ضهر الانسان ، السنوريات ، والدببة قصيرة الوجه ، والذئاب الضخمة ، كائنات عاشت الاف السنين وبعد ضهور الانسان بفترة وجيزة انقرضت ، بلا سبب . يعتقد انها اصطدمت مع هذا المفترس الرهيب ، مفترس يعمل وفق ما تقتضيه شهواته ، لم يكن له اي اعتبار اذا فقدت هذه الكائنات وليس له اي اعتبار ابدا بما يخالفه ، انه يؤمن بوجوده خليفة في الارض ، لكنه لا يؤمن بغرض وجوده ، لم يفكر ابدا انه موجود للتعمير ، لذلك هو مترقب حملات الانقراض ، لن يكون جماعيا هذه المرة ، لكنه تأديبي فقط .

كان كل غرضي أن آتي لأسترخي ، ولكن هيهات .كانت الافكار تأخذني بين فضائها على الحال الذي وصلنا اليه ، لم اصح من افكاري الا بعد السادسة ،كان المقهى في ذلك الوقت يكتظ بالناس ، لم اعر اهمية لأحد ،كان هنالك رجل كبير في السن ، طلب ان يجلس بجانبي لعدم كفاية الطاولات ،كان يرتدي معطف اسود وقبعة ويمسك في يديه جريدة ، لم يكن من الواضح ما هي مهنة الرجل ، لكنه يبدو عليه الاناقة والثقافة فجلسته وطريقة طلبه للمكان لم تكن توحي انه شخص غير متعلم .

بدا يقرأ في جريدته وانا عدت اسبح في افكاري ، بعدها بقليل قطع علي تأملي وقال : من الواضح ان شابا مثلك قد تجره فتاة للتأمل هكذا كثيرا .

ضحكت ثم قلت : لا والله يا عم ، لم تكن فتاة ، انا فقط افكر في حالنا الذي يزداد سوءا .

هز رأسه موافقا ثم قال : هذا ما يحصل بين فترة وأخرى ..

ـــ كيف ؟

ـــ كل فترة من الزمن ، يمر على كل الناس في شتى بقاع الارض مصيبة ما ، وكل يكافئ حسب عمله في مصيبته ، هل تذكر ما الذي حصل عند اول ايام الاحتلال ،كانت الدنيا تحترق ، والناس تسرق من بلادها ظنا منهم ان هذه الاموال من ممتلكات الرئيس السابق .

ـــ بالفعل هذا ما حدث ، ولكن يا عم اليس هناك حل ؟

ـــ كلا ليس هناك حل و نحن دائما ما نسمع ، ان من اراد تغيير العالم عليه ان يبدأ بنفسه ، ومن منا فعل ذلك ،كلنا نغتاظ من الواقع ولا احد يصلح نفسه ، هذه الحكمة من المصائب يا عزيزي ... ان نتجرد من الأنانية التي تستملكنا حتى اننا لا نرضى ان نتخلى عن عيوبنا .

سكت قليلا ثم اضاف : انا لست متابعا جيدا بما يحصل في الارض والبلاد ، انا كل آمالي ان ارتاح من النكد الذي يأتي و هذه ليست اسوء ما مررنا به ، دائما كان هناك الأسوء .

عم السكون بيننا لنصف ساعة تقريبا ، كنت افكر في ما قاله ، كان لب الصواب ، لكن لا احد يعمل بما يعلم ، واخيرا استأذنته للرحيل وعدت الى النزل .

كانت امي قلقة قليلا فليس من عادتي ان اخرج ، قالت : الم يختطفوا عبد الرحمن من المقهى ، وها انتم تذهبون اليه ، متى سوف تكفون عن ذلك .. عندما يأخذونكم مني ؟

ــ يا أمي هؤلاء لا يحتاجون منا ان نخرج الى المقهى ، قد يأخذوننا من هنا ان ارادوا ، ليس هنالك حاجز يمنع . ثم اننا لا نملك مكانا اخر نذهب اليه ، كل ما لدينا هو هذا المكان الوحيد ، نلجئ اليه ان تركناه قد نموت حبسا في بيوتنا .

جلست اسامر امي قليلا ، وبعدها صعدت الى غرفتي ، كنت منقطعا عن ريم منذ يومين ، احسست ان لي رغبة بالتكلم معها ، ارسلت لها رسالة ، ثم انتظرت ردها ، جلست اعيد ترتيب كتبي بالمكتبة ، فكرت فيما ينقصني من عناوين كتب ، وجلست اكتبها في ورقة حتى لا انسى شيئا عندما اذهب الى شارع المتنبي لشرائها ، وصلني رد ريم بعدها بربع ساعة ، اخبارتها انني احتاج الى ان اكلمها ، اتصلت بها لمدة اربع ساعات ، بالطبع لم اخبرها عن ما حصل لكنني اخبرتها انني امر بوقت صعب ، وقد انقطع عنها لبعض الوقت ، كانت نبرتها مستائة جدا .

لأول مرة بين جميع العلاقات و اشتكي الى واحدة منهن ، لطالما كان في قلبي خوف من الغدر منهن ، لذلك كنت اتركهن قبل ان يفكرن في تركي ، هذا الخوف قد يكون ضعفا ، كنت اعتمد على نفسي في كل شيء ، حتى في السعادة ، كنت مستعدا ان اعيش وحدي ولا اطلب من احد حتى صحبة ، لم يكن من الممكن ان ارتمي على احداهن ، مهما طالت العلاقة ، لكن هذه كانت مختلفة ، لعلها الظروف التي جعلتني الجأ الى ان اكلمها ، لكن هذا كان خرقا للبروتوكول ،

خرق واضح جدا و لم يكن هذا الذي اعتدت عليه ، كنت دائما قويا حازما لا ابالي ، هل سوف اسقط عندها ..؟

تذكرت اثناء المكالمة ان اطلب منها صورة لها ، لم يكن في قلبي طلب معين ممكن ان احصرها في زاوية القبول ، لكنني طلبته هذه المرة ببساطة .

ــ ما رأيك ان ترسلي لي صورة لك .. ؟

كان السؤال مفاجئا و لكن كان من الضروري ان تسمعه يوما ما ، سكتت قليلا لكنها كأنما كانت تعلم باني سوف اسأله ..

ــ حسنا ، لكنك ستمسحها بعد ان تراها .. أتفقنا ؟؟

رقصت كل افكاري هنا ، اليوم سوف تنتهي اخر اركان الفوبيا عندي ، انها الخطوة الاخيرة .

ــ اتفقنا ..

ــ بعد ان تنتهي المكالمة سوف ارسل لك واحدة ، وستمسحها حسب وعودك .

ــ حسنا سأنتظر .

بعد انتهاء المكالمة ، ارسلت لي صورتها ..

****

من الصعب وصف شيء لا يراه احد سواك ، ان تعجبك لوحة غريبه لا تعلم انت شخصيا ما الذي يعجبك فيها ، لا احد يستطيع ان يقف بدالك على ذلك المسرح ، كل الذين من حولك هم جمهور يصفق او يبكي ، كل ما يفعله هو التفاعل معك لكنك انت الذي يعيش كل ما يتفاعل معه الجمهور ، نافذة الفتنة تلك تفتح على طرف واحد كل مرة ، نافذة عليك ان تغض بصرك

عنها ، لأنها لا تسمن ولا تغني من الجوع ، قاسية ، ليس لها قلب او رحمة ، لها القدرة على ان تفتك بقوانينك مهما كنت ملتزما ، انت الوحيد الذي لا يمكنه التحكم بنفسه امامها ، لذلك كان من المفروض ان تتخلى عنها سريعا ، فور احساسك بان النور الوهمي قد بدأ يخرج منها ، مع بصيص من الشهوة التي تطلب منك ان تلتفت ، ان تنظر الى تلك النافذة ولو للحظة ، انها كإبليس الذي طلب اكل تفاحة من الشجرة ، رغم ان الثمار لا تعد ولا تحصى ، كانت تلك هي الشجرة التي من الممكن ان تقلب الموازين ، المنعة ، الاختبار ، الحب ، والشهوة كل تلك كانت شيء من العمر يخبرك انها لحظة من العمر ، فعلا ...كانت لحظة من العمر .

عند اول نظرة لتلك الصورة ، تيار جارف من المجهول ، بعد ان عاشرت جنيا لمدة اشهر ، عليك الان ان تتحقق منه من هو ، عليك ان تمعن النظر الى وجهه لتعلم ان جزء من حياتك كان معه ، لم تكن ريم ملكة جمال ، او رائعة حد فقدان العقل ، كانت فتاة ، مجرد انها انثى لها معايير مختلفة ، كانت تتغطى بحاجب يكشف خفايا المقابل ويستر فتنة مجهولة فيها ، كم من المرات دارت الارض لتجمعني بها في لحظات مثل هذه ، لعل الزمن الذي اقدمت فيه على ان تخرق قوانين وجودي الفعلية ، هو جزء من روعتها التي جهلتها طوال الدقائق التي نظرت فيها اليها ، مع ذلك كل ما في الامر انها كانت كافية .. فعلا كانت كافية لأن تنتهي القصة عندها .

بعد هذه اللحظات كانت ستارة الحب تشتهي ان تنزل ، ليبدا المؤلف كتابة سيناريو اخر ، مغاير جدا لما كان عليه قبل تلك اللحظات ، ان يبدأ فصل من المسرحية ، لا يتوقعه الممثلون انفسهم ، حتى الجمهور كان لا يفهم فيم تلك المسرحية و عن ماذا تتحدث ، متى ستنتهي ، او لماذا يصفقون ، مجرد ان البطل بدأ يلعب بطولته المجهولة بشيء من الألم . ارتفعت ستارة الحب ليبدا الفصل الجديد ...المجهول .

****

جانب كبير من الحب ..

عبارة عن استعراض .

يا ترى ما الذي يوجد خلف الوهم ، ما هو شكل الحياة في ارصفة الخيال لدى كل واحد منا، لطالما كان لكل شخص منا حكايته التي تختلف في كل زاويه من زوايا حياة الاخر ، نظن احيانا ان فيما بيننا تشابه في الافكار او الحياة ، او حتى الاماني ، لكن لطالما كان لكل منا نكهة خاصة في حياته .

الى ما قبل البارحة ، ما قبل زوال الفوبيا من عقلي المهووس ، كانت ريم لا تعلم عن حياتي شيئا ، جانب قليل هذا الذي كنت احتاجها ان تعرفه .

كنت امارس معها حياة اخرى ، حياة لا تعكس لواقعي اي ضوء ، خارج ذلك الصندوق الازرق وذبذباته الوهمية ، كانت هناك صراعات اخرى لم تكن ريم تملك عنها حتى الان اي نظرة ، الجامعة ، المنزل ، الحياة ، واخي الذي نتشاجر لكي نتصالح ، كان واقعا مؤلما ، الحياة تغدو كمفرمة لا احد يدخلها الا ليخرج بشيء من الموت بين يديه .

في لمحة من العمر ، قد يلتفت الانسان ليحسب انجازاته ، بعد ان عبر شبابه بلا مقدمات ، ولا حياة تذكر .

سيرا الى المقبرة ، ما الذي يمكن لأي شاب ان يفعل ، في واقع غدا الشباب فيه قدرة جنسية فقط ، عند عالم يتوقف الابداع فيه على فقر الامكانيات ، والموارد ، وزيادة الحجج والتخلص من المسؤولية وسب القدر .

لكن عندما يخلق النغم من اضلاع مايسترو ابكم يسقط عندها كل كلام عن فقر ل(لا شيء) ، تسقط عند صمته الذي اطبق على جوانب عقله و الصمت الذي حوله الى اجمل انغام تسقط بين يديه كل حججنا السخيفة ، قد يتمكن السجين من وصف الحياة خارج قضبانه اللانهائية ، لكنه من الخطر عليه ان يخرج بعد كتابته ليكتشف ان ما يرسمه لم يكن شيئا يستحق الذكر ، ليصطدم

بواقع مرير لم يكن يملك اي فكرة عن ان الذي يصفه مختلف تماما عن الفراش الذي يغفو فيه القلم بين احضان ورقة في ليلة تشوبها ثمالة للأبجدية .

كان واقع العاصمة التي حكمت الارض لسنوات لا يفتقر الى جديد ، انه يتكرر كل فترة من الزمن ، لم يكن هولاكو الا مهووسا جنسيا طمع باغتصاب ملكة بعيدا عن حراسها النائمين ، ما كان له الا ان يسلب تلك العذرية بأبشع ما تقتضيه شهوته .

هذا الاغتصاب يتكرر عبر الزمن بطريقة مشابهة ، على الفراش نفسه ، وللأسباب نفسها ، لكن كل زمن يأتي هولاكو جديد ليثبت ان فحولته اجدر من الذي قبله ، ليذكر الابناء واقعة الاجداد . الطائرة والمنجنيق او الرمح او الدبابة ، بل وحتى الجهل والمرض ، ليست سوى اعضاء ذكرية لمغتصب يولد كل زمن من بين اضلاعنا وتحت مرأى من الجميع ليشهد الجميع لذة جسد الملكة العاري .

ليبدأ عصر الاستنكار ، هذه هي القوة المعهودة حاليا ، والمعترف بها ، اما الطاقة الشبابية ، فهي طاقة جنسية لا غير .

ازدادت قوة العلاقة بيننا ، اصبحنا نتكلم اكثر ، لا احد يغيب عن الاخر ، الفصل الجديد كان مبهرا جدا بالنسبة لي ، كنت اكلمها في الصباح في الجامعة ، لم اكن اتوقع انني سأعجب بها اكثر ، لم يكن جمالها هو السبب فلم تكن اجمل من التقيت بها ، لكن السبب هو عنوان الفصل الجديد .. المجهول .

كانت اكثر من تحمل المشاكل التي وقعت بها ، اكثرهم سندا لي ، خصوصا بعد ان تم زرع الثقة بيننا ، باختصار كانت الملجأ الوحيد من المشاكل خارج اطار القاعة الزرقاء .

اصبحت اتردد على المقهى المجاور كثيرا ، دائما ما التقي بالرجل (علمت بعدها انه مروان وكان يعمل قاضيا في السابق) ، كنا نلعب الشطرنج بقواعد مختلفة ، فعندما تكسب قطعة من المقابل

تسأله سؤالا ، وعليه الاجابة حتى لو كان السؤال محرجا بلا اي انزعاج ، بصراحة كانت هذه فكرته وانا احببتها رغم انني كنت اكثر من يتلقى الاسئلة .

بعد ان كادت مسألة عبد الرحمن ان تنتهي وتنسى بيننا ، ولا تذكر الا اوقات الصلاة في الدعاء ، عادت الحياة الى مجاريها ، كان اخي يخرج ويتردد بكل مكان ولم يعد هناك عائق ولكن التفكير كان واحدا هو من سيكون التالي .

كانت الامتحانات قد بدأت ، وكانت ليلى تأتي لتستجمع بعض الاخبار ، ثم تضحك .. ثم تذهب . بالطبع لم تكن تعلم كل شيء عن ما كان بيني وبين ريم ، لكنها علمت جانب واسعا من العلاقة ، ومع ذلك لا تزال ترفض ان تتعرف عليها ، لأسباب خاصة على حد قولها . كان مستواي الدراسي في الامتحانات جيد ، رغم انني كنت اكلم ريم كثيرا في تلك الفترة ، واغفل عن الدراسة ، لكنني كنت سأنجح . وبالطبع هذا الامر لا ينطبق على مصطفى والمجموعة . كانوا يدرسون بشكل جيد ، وينجحون بدرجات عالية الا انا كنت المختلف عنهم .. تحت شعار (خالف .. تعرف) .

****

بعد انتهاء امتحانات النصف الاول من السنة الدراسية ، عدت الى حياة ما قبل الفيس بوك ، كنت اتابع المجلات الاجنبية على الانترنت ، واتابع اخر فيديوهات اليوتيوب و كنت اشارك بعضها مع ريم ، وبعضها قد تكشف جانب لا ارغب كشفه مني ، فلم اشاركها بها ، طلبت منها ان نلتقي مرارا ، لكنها تعتذر في كل مرة لعد توفر الفرصة المناسبة ، او لان الحب قد تنبأ انني لست مستعدا حتى الان ان التقي بها خلف الكواليس ، مع ذلك كنت اصبر عليها ، كانت تشير الى انها تتمنى اللقاء بي لكنها بنفس الوقت تتحاشى ذلك اللقاء خوفا من الذي قد يحدث بعده ، لم يكن من المعقول انها سوف تنطلق لأول طلب لقاء ، حتى ولو كانت مغرمة بي ، كل

شيء مع الحياة معها كان يحتاج الى تخطيط مسبق ، وافكار جديده ، وكأنها حرب استخباراتية ، حرب بارده ، لا يسخنها الا كتمان المشاعر بيننا ، والاصعب في كل هذا هو ان لا تجد مصبا يتلقى منك ما تشعر به . لذلك كان عليك ان تواجه بنفسك في كل تفاصيل تلك الحياة الثانية خلف حياتك العادية .

انقطعت عني يومين ، ثم جاءت باليوم الثالث بخبر صادم ، لقد تقدم لها شاب ، لحظة واحده ... لم اعد ادرك ما اقول ، هل هو خبر جيد ام سيئ ام ماذا ، لم اعد ادرك ماذا يتوجب لي ان اشعر به ، احساس بالفقدان ، هذا كل شيء ، لكن كانت تطلب رايي ، ولم اعهد ان وضعت في مأزق كهذا لكنني لم ابد اي مشاعر و اختبأت خلف الهاتف كي لا ينفضح سري الموءود ، لن ارتباكي كان واضحا ، قلت " الامر لك ، ليس لي اي راي غير انك صاحبة الامر " .

ـــ لكنك تعرف الكثير عن الرجال ، ويمكنك ان تقول لي ما هو المناسب .

ـــ هذا صحيح ، لكنني لا اريد ان اتهم شخصا بما لا اعرفه عنه ، لكل شخص منا مقاييس معينة للرجل المناسب ، وذلك ما تحددينه انت ، او عائلتك .

ـــ حسنا لكني لن افكر بالموضوع كثيرا حتى انتهي من الثانوية .

ـــ هذا افضل .

بصراحة ، لم اعر الموضوع اهميه كبيرة جدا ، لأنني لم افكر انها ترفض او ترضى ، هذا لا يهم . كان تصرفا عاديا مني لكن مشاعر مختبئة تنذر بقادم لا يسر ابدا .

****

ـــ الملكة تقتل البيدق ، ما رأيك استاذ مروان ؟؟

ـــ انت تتحسن ، دورك هيا اسأل .

ـــ بطول عملك كقاضي ، هل ظلمت احدا ؟

عم السكوت قليلا كأنه يستجمع ذكرى سيئة من ذلك العقل العتيق ، سؤالي يبدو انه صعب حقا ، قال لي ذات مرة انه من الصعب ان تكون قاضيا ، ليس آمنا لك ان تكون صاحب قرار عظيم قد يودي بحياة البشر ، يقف ذلك المتهم بين يدي ، والادلة والبراهين على انه هو القاتل ، لكنه لا يزال متمسكا انه برئ ، لم يفعل شيئا ، ذلك الشعور الغريب الي تشعر به حال اطلاقك الحكم عليه ، " حكم عليك بالسجن المؤبد " ... انها لحظات نطقها اصعب مما تتخيل ، لا يكنك ان تتخيل مدى الالم الذي قد يصاحبك مدى عمرك ، الظلم ليس كما تعتقد ، على الاقل ليس كما يعتقد من له قلب يتفكر به .

طال صمته كثيرا حتى اعتقدت انه يفكر باللعب : استاذ مروان ، هل سؤالي محرج لهذه الدرجة ؟ من الممكن ان نغيره .

ـــ لا لا يمكن ، قواعد اللعبة تقول هذا ، لكن ... حسنا سوف اخبرك بسر ، عندما عملت قاضيا ، كان مشهودا لي بانني مجتهد وصاحب كفاءة في العمل ، خصوصا انه في وقتي كان لابد من وجود الكفاءة في المكان المناسب ، وليس كل شيء هينا ، جاءت يوما ما امرأة تطالب الحقوق من طليقها ، النفقة ... والخ من الحقوق التي تتوجب بعد الطلاق ، كان طليقها واثقا من كسب القضية ، خصوصا انها لم يكن لديها محام كفئ للقضية ، اما طليقها فقد امتلك ابرع محام في ذلك الوقت ، كانت القضية جلية امامي ، ان الحق لطليقها ، لكن ... كنت خائفا ، كانت المرأة مظلومة ، كان من الممكن ان تكسب القضية لو وكلت محام بارع ، قام محاميها في ذلك الوقت بتأجيل الحكم بالقضية مرتين ، لكن في كل مرة كان زوجها يأتي بأدلة اوضح من التي قبلها ، وبالطبع في النهاية كسب زوجها القضية ، الغريب يا فارس ان المرأة كانت قوية جدا ، لم تنهزم ابدا ، صدقني رغم ان زوجها كسب القضية كانت مبتسمة ثم نظرت اليه ثم لي ، باعتباري القاضي ، صدقني ، اصعب ما واجهته في حياتي هو نسيان تلك النظرة ، علمت بعدها بشهور من صديق

لي ان زوجها مات اثر مرض عضال ، بعد ان خسر كل ثروته ، ارتعد جسدي بذلك الخبر ، كنت انتظر ان يحين دوري ، هل تصدق انني كنت ازور المختبر للتحليل عن اي مرض كل شهر تقريبا ، لكنها اصابتني بمرض اشد من زوجها ، انه الخوف ، بعدها بفترة اعتزلت مهنتي كقاضي ثم مارست المحاماة فترة ، وبعد سقوط النظام ، تقاعدت ، والان اعيش على الاستشارة القانونية ، القضاء متعب ، والان لننهي اللعبة .. لقد مات ملكك يا صاحبي .

ظل في تفكيري ان العم مروان يعاني طوال حياته ، لم تكن صدمة لي انه فاز في اللعبة ، لم تكن المرة الاولى ، كان بارعا في اللعب كثيرا ، لكنه اليوم اصيب بسهم على وتره الحساس ، اتخيل كم هو يعاني ، ويحلم بتلك المرأة التي جهل مصيرها بعد تلك القضية ، لكنه لم يظهر معالم الحزن تلك لاحد ، كانت حياته بين مكتبه القانوني والمقهى ، وكتاب يقرأه اخر الليل لكي لا يتوقف عقله عن العمل ، ماتت زوجته منذ سنوات ، وله اولاد متزوجون ، يزورونه من فترة الى اخرى . نطق بعد ان انهى اللعبة :

ــ انت تتحسن يا فارس ، بالأسئلة واللعب .

ــ هذا بفضلكم يا عم .

ــ الفضل لله ، نراك غدا .

قبل ان تذهب يا عم ، لدي سؤال ، رغم انك انت الفائز لكن لي سؤال اريد الاجابة عنه .

ــ هذا مخالف لقواعد اللعبة .. قالها مازحا ثم اضاف : تفضل يا فارس ، اسأل ما لديك؟

ــ متى ستنتهي الحرب ؟

ابتسم بمرارة ، وقال :

السؤال خاطئ يا صاحبي ، عليك ان تسأل سؤالا صحيحا لكي اجيب عنه . اراك على خير .

نهض و حمل جريدته ثم ذهب الى بيته ، وانا تركت في حيرة من امري ، اردت ان اعلم الى متى قد يبقى الانسان على تلك الحالة ، الى اي مدى قد يتوقف طمعه ذاك ، لكن بدل ان ابحث عن اجابة لسؤالي ، قررت ان ابحث عن سؤال اخر ، السؤال الصحيح .

عدت الى البيت ، كانت اختي في زيارة لنا هي وابنها الصغير ، جلسنا على العشاء ، منذ مدة لم تجتمع العائلة على مائدة واحدة مكتملة ، خصوصا بعد زواج اختي ، كان الجو صاخبا بالضحك ، كنا قد قررنا ان نجد زوجة مناسبة لأخي الذي سوف يتم ال24 بعد شهرين ، وضعت امي له قائمة من البنات الاتي تعتقد امي انهن مناسبات له ، رفض بعضهن وقبل ببعضهن ، واخبرها انه سوف يفكر ويقرر بواحدة ، ثم يتقدم لخطبتها في نهاية الشهر .

بعد ان انتهى العشاء متأخرا كعادة كل عشاء يملئه الكلام لا الطعام ، عم السكوت ، لحظات ... ثم نسمع صوت خلع لباب البيت ، انهم قادمون ..

ازداد الوضع ارتباكا ، كنت في الغرفة الاخيرة اسمع اخي يصرخ بصوته ، وكأنه شجار نشب بين العائلة ، خرجت لأجدهم امامي ، حقا .. لقد حان دورنا ، قائمة الاسماء تتسلسل لتصل الينا ، لم يكن هنالك اي وقت للتفكير ، سرب من المسلحين متلفعين بالسواد ، وكأنهم غربان ، او قطيع من الكلاب المسعورة ، استفحلت لتفتك بوجبتها القادمة ... " هل انت هاشم ؟؟ " وجه الضابط الملثم سؤاله لأخي .. " نعم انا هو " وبدأ التفتيش والنبش والوحشية ، حجزونا في غرفة واحدة واخذوا اخي للطابق الثاني ، الخوف هنا لا يمكن الشفاء منه ، كنا نرتجف رعبا ، اننا محاطون برجال لا قرار سليم لهم ، شخص ما سيبيت بعيدا عن عائلته اليوم ، في كل لحظة من الحياة كان هناك من يزج في السجن بتهمة سيعرفها لاحقا .

عمو .. نطق الطفل الصغير ، انه يشاهد امام عينيه خاله يجر من بين يدينا ، ما الذي يمكن فعله في تلك اللحظة ، نعم انه عمو لكن لا يمكنك ان تلعب مع عمو هذا ، انه لا يأتي من اجل اللعب

، او من اجل التسلية ، انه يأتي ليؤدي غرض معينا ، سلسلة من الاسماء يطبق اسمائها يوما بعد يوم ، في يوم ما يا صغير ستعلم ان اللحظة هذه هي نكسة في العمر .. انها اللحظات التي يعجز عن وصفها اي قلم ، رعب من عالم السينما يزج بين يدي كل عائلة ، لم يتركوا شبرا في البيت الا وفتشوه ، اخذوا ما يمكن اخذه معهم ، ثم نزل الضابط الملثم ، يبدو انه هو المسؤول عن الاقتحام : لدينا بعض الاستفسارات ، سوف نأخذ ابن هشام لمدة نصف ساعة ثم نعيده اليكم ، لن يتأخر صدقوني .

انها المقولة المعتاد ، استفسار ، نصف ساعة ، لن يتأخر ، لكن المصيبة انك مضطر ان تصدقها ، ان تتفاءل رغم علمك بان اخاك سيجر الى سجن لا يرحم ، الى بؤرة من الالم ، مع غيره .

خرجوا ، وخرج اخي معهم ، لا يمكنك ان تحسب النصف ساعة هذه ، انها ليست ثلاثين دقيقة ، ولا حتى ثلاثين يوم ، انها نصف ساعة بتوقيت ساعة يد الضابط ذاك ، سينقضي الليل لينجلي الصباح ، وتبدأ تبحث عن اخيك بين اطلال ارقام الاصدقاء ، لتعيش واقعة الناس المرة ، واقعة تنبع بين يدي العوائل في كل لحظة ، تخيل وانت تقرأ الان ، انهم اقتحموا بيتا ، ان شخصا ، التحق بهشام وعبد الرحمن ، ما عليك سوى ان تنتظر دورك في تلك القائمة .

****

حتى صباح اليوم الثاني ، ما بعد المداهمة ، كنت لا ازال تحت تأثير صدمة الفقدان تلك ، كنت لا ازال احسب النصف ساعة التي وعدنا بها الضابط ، لكنها منذ الساعة الثانية ليلا وحتى التاسعة صباحا ، كانت لا تزال النصف ساعة لم تنقضي بعد ، وعد لابد ان تصدقه لكي تخفف عن نفسك ، " قد يكون قصده نصف يوم " .. اكذب على نفسك يا صاحبي ، ليس امامك غير الواقع ، اتصلنا بالأصدقاء ، والمعارف كالعادة ، لكن لا مجيب ، نفس الجواب السابق : لا يمكنك ان تعرف شيئا قبل بضعة اسابيع ، لكن من الضروري ان تعرف الجهة التي اخذته ، بالطبع ..

تعدد الجهات في وطننا العظيم تجعلك في حيرة من امرك . كان كل همي بعد اخي هو ان اواسي امي ، كانت مصيبة في حد ذاتها ، لم يكن مني الا ان مسك برباط جأشي امامها ، وهذا ما نجح معي لكن لساعات قليلة ، بدأت بترتيب البيت ، ومخلفات الغربان التي اقتحمت على حين غفلة ليلة الامس ، كما هو المعروف فقد نبشوا كل شيء ، لم يتركوا شيئا في مكانه ، سرقوا بعض الاموال ، ساعات اخي اليدوية الثمينة ، وبعض الشكولاتة التي كان اخي يحتفظ بها في درج مكتبه ، لم يكن يرغب ان يأكلها لأنها هدية من امي .

نزلت الى الطابق السفلي بعد ان تأكدت ان الجميع في الاعلى ، كانت اللحظة الاولى التي اختلي فيها بنفسي ، تأملت لحظات ، استوعبت الصدمة ، وسقطت على ركبتي ، كان شعورا لا يوصف ، اخي قد سحب من بين يدي ، ولم يكن هو ليرغب بذلك لو كان مكاني ، كنت وأخي دوما نتشاجر ، كان يضربني احيانا ، لكنه لم يسمح لاحد ان يفكر في ضربي ، كان يحبني ، يفخر بي ، بطريقة تفكيري ، باتهاماتي بكل شيء ، احسست ساعتها بفقدان كبير ، برغبة عارمة ان الحق به ليجمعنا مصير واحد ، مهما كان ، هذه كانت رغبته لو كان مكاني ، لكنني لست شجاعا بقدره ، لست قويا لأواجه الكلاب مكبلا وحدي ، اتخيله معصوب العينين يواجه الاسئلة التافهة نفسها ، اتخيل فقط ، قد ابكي ، قد الوم نفسي ، لكنني لم افده بشيء ، فقط انوح كما تفعل النساء في الطابق العلوي .

بعد اسابيع من المداهمة ، كان الوضع في البيت متأزما ، ولا نعلم حتى الان اين مكانه ، وكالعادة انقطعت عن ريم ، ايام ثم قررت ان انقطع نهائيا ، اذكر حينها انها كانت بعد الفجر ، ارسلت اليها رسالة ، وانتظرت الرد ، كانت لا تزال صاحية لم تنم بعد :

ــ ريم .. هل انت موجوده ؟

ــ نعم ، كيف حالك يا غائب لم نتكلم ماذا هل مللت وجودي ؟ ؟

ـــ لا ليس لأمر هكذا لكن .. هل من الممكن ان اطلب منك شيئا ؟؟

ـــ تفضل ، ماذا هناك ؟

ـــ لنفترق يا ريم ..

ـــ ماذا ؟ ما الذي يحدث يا فارس ، انت متغير منذ اسابيع ، هل هناك شيء ؟؟

ـــ لا شيء سوى انني اريد ان انعزل عن العالم

ـــ وهذا لن يحدث ، قل لي ما الذي يحصل معك ؟؟ السنا اصدقاء منذ مدة طويله ؟ لا يمكنك ان تذهب دون ان تخبرني ، لن اسامحك ابدا .

كانت مصممة ، وكنت في حالة لا تطاق ، لكنها كالعادة كانت تطيقني ، اخبرتها بالذي يحصل معنا ، كانت متفاجئة جدا .

ـــ كل هذا يحصل معك ولم تخبرني ، لماذا ؟ هل تريد ان تتحمل ذلك كله وحدك ، الا ترى الحال التي وصلت انت اليها الآن ؟ لن اتركك لكني لن اضغط عليك للبقاء معي ، نحن اصدقاء ، شاركت معي لحظاتي المرة ، وعلي ان اشارك معك لحظاتك الان .

ـــ حسنا لكني قد اكون مشغولا هذه الفترة في ترتيب موضوع المحامي والخ ..

ـــ حسنا لكن لا تنقطع عني نهائيا ارجوك .

ـــ حسنا ... ريم ، شكرا لك

ـــ لا تشكرني ، لقد فعلت اكثر من ذلك لي يا فارس .

كانت هذه الايام المرة تمشي على استحياء من الذي نقاسيه ، كانت المصيبة تستحي من امي المنكوبة بولدها الذي جرجر من بين ايديها ، اذكر انها تصحو بالليل تصرخ تطلب ولدها ، " اريد

ولدي ، فليأتي احدكم بولدي " ، كان مجرد التذكر ان ابنها الذي تشاكسه وقت الظهيرة لن تشاكسه بعد اليوم ، انه لم يعد في البيت مؤلما ، الحياة الراكدة من قبل يوم النكسة قد جاءها الحجر الي يعكر صفو تأملها ببشاشة السماء الصافية ، ويفيق فيها شقاوة الحياة وقساوة ضرباتها ، سقط الحجر في البركة ، ودخلت هذه المصيبة تأريخ العائلة بأوسع ابوابه ، صار جزءا سوف يحكى يوما ما ويعاد في ذاكرة الجميع ممزوجا بدمعة حارة لا يمكن ان تبرد ابدا كحرارة النار التي اشتعلت شوقا للفقيد .

كانت المشكلة في الاسابيع الاولى مؤلمة جدا ، لا يوجد جدوى من البحث عنه ، ولا يمكن معرفة مصيره حتى يستكمل الشر دورته المأساوية ، حتى بدأت العائلة تتأقلم مع المصيبة ، وتستوعب الحالة التي هي فيها ، كان قد بدا خلالها جو جديد ، وهواء ممزوج برائحة الانتظار .

في تلك الاثناء كانت علاقتي مع ريم اقوى من ذي قبل و بدأت الظلمة المستورة من جانب حياتي تتعرى امامها شيئا فشيئا ، كانت توجه الشعلة الى اقبية بداخلي ، كنت اخشى انا شخصيا ان ازيح عنها غبار الماضي ، لكنها ازاحته ، وتجردت امامها الوقائع ، اكتشفت وقتها كم هي قوية ، جريئة بأستحياء ، عميقة بظلام الحنان الذي افاضت شيئا منه الي ، كنت في حياتي ارفض ان اكون طرف يعطف عليه ، لكنني كنت احتاجها ، كالعادة و كسرت قاعدتي ، يالها من امرأة متمردة ، لم يكن هنالك قانون ينفع ان يستوقف اجتياحها الهائل ، ولا يوجد ما يمنع موسيقاها الصاخبة من الانبعاث ، ولا يجرئ احد على ان يصم اذانه عنها . لم يكن احتياجي فقط سر امتلاكها لي ، بل كان السبب الاكبر هو روعة تميزها بالعطف ، وتفننها بالحنان ، روعة تجريدها لي من ظلمتي ، وحياء الظلام امام عينيها التي الى ذلك اليوم لم احض بنظرتها .

كنت اتمنى ان ارى ما تراه من ذلك المسرح ، عالمها الخاص الذي اتمنى ان اتعمق فيه اكثر ، كانت وحدها التي ترى روعة المسرح وجمال الحياة ، بغشاوة تملئ عينيها سحرا للناظر لها ، وسحرا لما تنظر له ، كانت ككاتب رواية يختبئ بين السطور ، ليزيد القارئ حبا به دون ان يراه ، دون ان

يعيش معه مساحة تفوق السنتيمترات المحيطة بالكتاب واقعيا ، اما في الخيال فتعيش معه ما لم يكتب ، ما لم يقل ، وما لم يفكر هو به ، هكذا وقد بدأت تخلع صمتها وغموضها ، ترمي فصولها العاشقة بين اطلال الكلام لتستفرد بفصلها الحاني ، مع ازهار لا تنبت الا بعينيها ، لذلك كانت الرقصة اصعب ما تكون ، كان علي ان اقرأ خطوات افكارها ، من اول محادثة ، من اول حركة ، عندما تسللت الي خلسة من نافذة النظر في ذلك الجهاز ، كي تستفتح معي رقصتها الماكرة ، صراع على خشبة الحياة ، لا بد ان يكون هناك فائز و لا يمكن ان تنتهي القصة هكذا بحدث بسيط ، كان على الحياة ان تشبع حد التخمة من التضحية ، ذلك ضروري بالنسبة لحياة تشوبها نكهة الحرب ، الحرب الساكنة الغافلة ، حرب الاسماء و الكلمات المتقاطعة ، هكذا يمكن للمجرم ان ينام مطمئنا بعد ان تم حل الكلمات المتقاطعة في جريدة الموت ، ليكتشف الاسم القادم الذي سيتم سحبه غدا مساءً، كان عليه ان يضبط ساعته الجديدة ، نصف ساعة اخرى يتم دورتها من عائلة اخرى سوف يتفجع ليلا بفقيد جديد يرمى خلف جدران الظلام ، كان عليه ان يمسك ورقة الاسئلة ويتلو على مسامع المرآة اسئلة متشابهة لأشخاص مختلفين ، ليبدأ الحب يلملم اطرافه من الموت لينسج القصة الجديدة ، قصة لا ينبغي ان تتم بلا دم .

****

الجدير بالذكر اننا جميع محترفوا تمثيل ، والممثل البارع هو من يسقط ضحية كل شيء ، الاوسكار الحقيقي في مسرح الحياة هذا هو ان تفعل كل بشع يمكنك ان تفعله ، ثم تسقط ضحية ، الضحية الحقيقية في هذا المسرح هو المجرم الغاشم ، المجرم الذي انسابت جميع الجرائم من تحت قدميه ثم يسقط ويعترف بجريمته ، كان من الضروري في وضع كهذا ان تعدد وجوهك التي تتكلم بها ، الجهات التي تنتمي اليها ، واحيانا اسمائك التي تسمى وتنطق بها ، لديك وجه مختلف للعمل ، ووجه للبيت ، ووجه للمقهى ، ولكل من اصدقائك وجه وجهة اخرى تنتمي اليها ، لا يمكنك ان تمضي يومك بلا كذب ، بلا مساحيق من المشاعر الزائفة تتكحل بها سلامة لك ، ولعائلتك

لكي لا تدرج حروفك في تلك الجريدة ، والبطل الحقيقي هنا القوي ، لا يمكنك ان تكون ضعيفا ابدا .

في تلك الفترة كنت قد انهمكت بالقراءة لطرد الوقت ، وهروبا من التفكير القاتل ، كان من الضروري ان لا اغفل عن الجامعة ، لأنها الامل الاخير في حياتي لا يمكن ان اغفل عنه . في يوم السبت المصادف اليوم المئة الاربعين بعد المداهمة والنكسة ، كنت سهرانا مع ريم نتكلم في امور شتى ، كانت قد صرفت الكلام عن الوضع الذي امر به اجتنابا لتعكير المزاج ، ليلتها تكلمنا عن كل شيء ، لم نترك موضوعا الا وتطرقنا به ، اكثر اسئلتي كانت حول موضوعها مع حسام ابن خالتها الذي طلب منها ان تنتظره حتى يستجمع قواه وامواله ويخطبها ، كانت تسخر من الموضوع ، لأنه لا يمكن له ان يخطبها فكل اهلها رافضين له ، بكل الجوانب كان النصيب يطبق عليه ابوابه ، حتى هي لم تكن لتقبل به بسبب وضعه السيئ ماديا ومعنويا .

في صباح اليوم التالي كان المنبه الذي صحوت عليه مختلفا ، مغاير للطمأنينة التي اعتدت ان ابدأ يومي بها ، صوت انفجار هز اركان المنطقة ، منبه ينذر النائمين ان لا مكان للراحة هنا ، كان الصوت كفيلا ان ينشط ذاكرتك بكل اصدقائك الذين من الممكن ان يكونوا قريبين منه ، يشغل لك كافة سيناريوهات الشر والموت تحدث مع كل من هم بعيدين عنك .

الكل فزع الى هاتفه يتذكر كل اصدقائه ، حتى من تخاصمت معه تنسى كل شيء بمجرد انك تسمع منه كلمة انا بخير . على الاقل كان هذا وحدا من فوائد التكنلوجيا .

قمت ساعتها فزعا ، على الرغم من انني لم انم جيدا ، كان الصوت والرهبة دسمة لحد ان تفقد العقل شهيته في النوم ، نظرت من زجاج النافذة المحطم اثر العاصفة التي يولدها الانفجار الى الدخان المتصاعد ، كان الانفجار في وسط السوق ، في الشارع الذي يكتظ بالناس في هذا اليوم من الاسبوع ، كان الناس ينقلون الجرحى على اكتافهم ، او بالعربات التي تسحب باليد او

يسحبها الحمار ، لا احد ينتظر سيارة اسعاف التي تتأخر . " يوم سيئ من اوله " اخترق الصوت الزجاج المتكسر ، رجل في الخمسين من عمره يرى بلاده التي افنى شبابه فيها بهذا السوء ، لا اعلم هل لحسن الحظ ام لسوئه انني لم اعش فترة رفاهة في هذا الوطن .كان عمري ثمان سنوات عندما قامت امريكا باحتلال العراق ، وسقط النظام السابق ، هناك من يتمنى رجوعه وهناك من يسبه ليلا ونهارا ، ولا اعلم الى اي من الاطراف قد انتمي انا .

نظرت الى ساعة كانت الساعة التاسعة والنصف ، كان الجو يومها حار جدا ، الصيف العراقي بدا بالغزو على اركان السماء ، وليس من صيف كما في العراق ، ارتديت قميصي و بدأت اتفقد بقية نوافذ المنزل ، كانت النوافذ المطلة على الشارع محطمة كليا ، تذكرت قول هاشم " اكثر المهن ربحا في هذا الوطن هو النجار و مصلح الزجاج " .. سألته يومها لما النجار بالذات ؟ " ومن سوف يصنع التوابيت للموتى " .

كان لأخي نظرة للحياة غريبة ، كان رغم كل شيء يحب وطنه ، بصراحة لم اشعر يوما بحبي للوطن لأني لم اعش فيه كما اردت ان اعيش ، لكن هاشم كان يفكر باليوم الذي من الممكن ان يكون الوطن هو الارض التي بنيت لي جثثنا ، وبدماء الابرياء ، كنت انتقده على هذه الافكار وهذا الرأي و وكان ينتقدني على عدم احساسي كما يسميها هو" الوطنية على الرغم من ذلك كان يضحك عندما اكلمه عن وجهة نظري ، لا ينتقد شيئا من ما اقول ، ويترك لي جميع الاسباب التي اطرحها لكنه تمسك بسبب واحد ، هو ان مصيره معلق بهذا البلد بمجرد انه ولد فيه ، لم يشأ ان يخرج على الرغم من كثرة الفرص التي اتيحت له ، كان متمسكا به ، كنت اقول في نفسي ان اخي مهمل في ذاته لا يريد ان يطور نفسه ، لكنني اكتشفت العكس ، كان اخي مطور لنفسه ويطمح ان يضفي من هذا التطور شيئا الى وطنه وارضه التي تخليت عنها ، الى الان ، والى هذه الساعة المنكوبة انا لا اكن اي مشاعر لتلك الارض ، انا احس انني لا انتمي اليها ابدا .

بعد فترة اتصل بي احد الاصدقاء ليخبرني انه وجد لي عملا ، كنت قد اوصيته من قبل ان يتم اعتقال اخي ، والان لقد وجد لي عملا كنادل في مطعم قريب ، استجبت لطلبه واخبرته انني سوف اباشر العمل في اسرع وقت ، عندما تم طرح الموضوع على امي كان من الطبيعي ان ترفض ، " لسنا بحاجة الى المال " ..كان هذا جوابها المتوقع لكنني كنت مصرا على ان اعمل ، وخصوصا ان وقت العمل المسائي مناسب للأيام التي اذهب فيها الى الجامعة ، وانني من الممكن ان اوفق بينه وبين الدراسة ، ابي كانه موافقا لكن امي لم تقتنع بسهولة ابدا ، في النهاية ارتمى الراي للأمر الواقع ووافقت .

اليوم الاول في العمل كان متعبا ، كنت مرتميا على العمل رميا ، خصوصا انهم اخبروني ان مرتب العمل يعتمد على الاجتهاد ، اذا علي ان اعمل بجهد مضاعف عن البقية لأحصل على مرتب محترم ، كان في المطعم ستة اشخاص يعملون معي ، وانا السابع . كنا خمسة من الرجال وفتاتين ، الرجال عملهم بعضهم في المطبخ والبعض الاخر نادلا ، اما النساء فكان عملهن اما في تنظيف الصحون او في الطبخ .

كان الجميع مرحب بي في العمل ، باشرت في العمل فور وصولي ، كان رب العمل الاستاذ صالح ابو مهدي ، قصير القامة ذو نظرات حادة ولم يكن يحب المزاح في العمل ، لكن العمال اخبروني انه كريم جدا ، وان ما يبدو عليه يظهر فقط في الايام الاولى اذا جاء لنا عامل جديد .

عمل النادل كان اشبه بالتيه بين ممرات الحياة ، تنتقل من طاولة لأخرى ، ومن مرحلة لأخرى لتجد طلبات من القدر ، تتنقل بابتسامتك المصطنعة ، وبقناع العمل المطلوب ، والكلمات الزائفة التي قد لا تلتقي الا بزيف كما خرجت ، هكذا تنتقل بالحياة بزيف وتعيشها بكذبه وتنهيها ... قد يكون الغموض لنهاية قصتك الحياتية مناسبا .

كقطار على قيد التنقل من مرحلة الى اخرى ، يتبعثر ركابه بين محطاته ليلاقي اجله النهائي في احداها و في كل فرع منها كان له طلب بسيط او عظيم و لم تكن الطلبات هي الاهم بالنسبة لقطار لا يأبه حتى بوجهته المتكررة ، تتقاذفه الحياة بين ازقتها وطاولاتها ، لم يكن رغم انفه اي شيء ، مجرد انه وجد نفسه متنقلا بين وجهاته على رفات غيره ، والنهاية ...لا يزال الوقت مبكرا في الحديث عنها .

على مرأى ومسمع الطاولات ، لا يزال التفكير يغرقني ، بعيدا عن ما اسمعه من طلبات واوامر وتذمرات ، كان لي عالم داخلي لا يسمع صداه الا الجماد ، لا ازال افكر كيف ينتهي مني ذلك الحزن الذي فرضته طاولة الحياة التي انا فيها الان ، ومتى سوف انتقل الى طلب اخر وطاولة اخرى لها شيء اسهل ، لم يعد في جعبتي ما اضعه على تلك الطاولة ، ورغم ذلك كانت تطلب المزيد لكي تستنزف في اطارها اكبر الاعداد من البشر بمفرمتها لتطعم الكلاب السائبة على كراسي سميت بعد فتره من الاشباع كراسي السلطة.

الاشباع لا يعني الاكتفاء ، ليس مرادفا للقناعة ، كما ان الصدق ليس مرادفا للحقيقة ، عندما تفرش احزانك ارضا في غرفة من الذكريات ، لتتسامر معها وحيدا لا يشاركك احد ، وفي الجهة المقابلة من المرآة هنالك من سلب منك السعادة ، وجلس يفترشها امامه ليرى انجازاته ، طرفان نقيضان في الحياة لابد من وجودهما ، لا يمكن ان يكتمل ميزان الحياة الا بعد ترجح الكفة للطرف الثاني طويلا .. هنا يمكنك ان تبكي بحرقة على لا شيء استطعت امتلاكه ، وعلى اشياء فقدت منك ، ثم تبكي حتى تنتظر الموت ، لكن هل يمكن للموت ان يكون مرادفا للخلاص ، او للنهاية ؟؟ .

اثناء العمل دخلت مجوعة من الفتيات ، لاحظت تغير وجوه العمال الى شيء من الانزعاج من وجودهن ، صحيح انهن كانوا يتكلمون بصوت يكاد يسمع من نهاية الشارع ، لكن لهذا ليس من شاننا ، طلب خالد مني ان اذهب اليهن انا وارى ما يطلبن ، وافقت دون نقاش او اهتما لغرابة

طلبه ، اخذت الطلبات منهن ، ثم توجهت الى المطبخ وقدمت ورقة الطلبيات ، لاحظت وجود آيات الشقراء خلفي ، كانت هي المسؤولة عن غسل الصحون في المطبخ . بشيء من الفضول سألتها ما خطبهن ؟؟ . اخبرتني انهن ذوات سمعة سيئة ، والكل يتكلم بهن ، ويأتين بشكل مستمر الى هذا المطعم لقربه من الجامعة ، لكن لا احد يحترمهن ، ونادرا ما تأتي واحدة على حدى ، ورغ ذلك لم يأتين مرة مع شاب ابدا ..

اثناء انتظاري للطلب ، بدأت اتفحصهن ، لم يكن بالشكل الذي يمكن الحكم عليه ، ام كان ذلك بسبب اني لا احب سوء الظن بالناس ، كانت واحدة منهن ترتدي الحجاب ، والاثنين الاخرتين سافرات ، لكن ذات الحجاب كانت اكثرهن اناقة ، بعينيها الخضراوتين ، قد يكونان عدسات لاصقة لكنها كانت ملائمة لطلتها ، نظراتها الحادة المتفحصة لوجه كل منهن ، كأنها هي القائدة ، او القوادة اذا كن بالفعل كما يتكلم الناس ، لكن الناس لا يوجد لديه الا الكلام ، وهو العنصر الاساسي الذي يتعدى اهميته اهمية الهواء ، الكلام الهدم للسمعة ، منذ ان اصبحنا اناسا تحكمهم الاعراف التي تخدش بالكلام ، اصبح الكلام اساسيا للحرب بين الناس ، هاهم البشر يبحثون عن الحرب بشتى اشكالها ، بينهم ، انها ضرورة الوجود الابدي الازلي بالنسبة للبشر ، ولازلت اتساءل متى تنتهي الحرب ، انها لا تنتهي ما دامت مزروعة بين اضلاعنا ، بين دستورنا العرفي الحقير الذي لم يزدنا الا تخلفا ، المرأة العورة ، وكلام الناس الخادش ، والانتهاكات التافهة التي لم تقدم لنا الا الدمار . عندما قدمت الطلب لهن بهدوئي الاعتيادي ، كان بي ضجيج لأسألهن عن تفاصيل تجعلني اطمأن لما يقال عنهن وصحته ، لكن نضرات العيون الخضراء كانت تحثني على الانصراف السريع لوجود كلام نسائي بينهن ، هل من المعقول ان يكون الكلام عن شاب يعجبهن ، شغفن باصطياده ، هذا لم يكن شأني ، انا عامل انتظر تغيير الطاولة لكي العب لعبتي مع الحياة على الطاولة القادمة ، لم اكن لأسمح لها ان تكمل الطلبات على مزاجها القدري ،

احاول ان اغير كل شيء ، خلقت من أجل التغيير هذا كان قراري الاول منذ ان بدأت استوعب حرارة الحياة مع صقيع مشاعر البشر .

****

بعد انتهاء اليوم الاول لي في العمل ، عدت الى البيت منهك القوى ، ومتضاخم التفكير ، لم يكن هنالك في الحياة ما قد يشغلك عنها ، لا يمكن للسمكة ان تنسى وجود البحر دامها فيه ، ولا يمكنها الا ان تختنق شوقا له عند خروجها . ارتحت لساعة ثم نهضت لكي ابدأ بالدراسة ، هكذا قررت ان اجعل الجدول اليومي لي . في اليوم التالي صباحا ، كانت اثار التنقل في اليوم السابق واضحة علي لم كن مرتاحا كثيرا لكنني كنت مقاوما ، هذا ضروري ، ديمومة الحياة للذي يصبر اكثر ، اما الذي يتعب منذ البداية ، حري به ان ينتحر ، وسوف ندعو له .

كنت منقطعا عن ليلى منذ مدة ، لكنها تعذرني لظروفي التي علمت بها مؤخرا ، قابلتها مع الشلة المعتادة هناك ، كانت تنتظرني ، التقينا سلمت على الاصدقاء ثم انسحبت معها الى كراسي في الزاوية ، تكلمنا عن اخر الاخبار وكلمتها عن عملي الجديد وهي كلمتني عن اخبارها وحين اخبرتها عن البنات الثلاثة الاتي اتين البارحة ضحكت عن ما قلته عليهن من كلام ثم اضافت :

ان العهر يا فارس ليس شيء تفعله ، ليس شيئا يؤخذ من الفتاة ، وليس حتى غشاء البكارة الذي ينفض بساعة شهوة ، لو كان العهر كذلك لما كان يشمل الرجال ، وهذا فعلا ما يفكر به المجتمع الفاشل الآن ، ان العهر في التفكير الذي يلتف به المرء قبل النوم ، والكلام الذي تطلقه الفتيات المدعيات للشرف في ساعة فيض من العفة التي يحسسن بها على حين غيرة من فتاة بدت بشيء هي اجمل منهن ، او حتى لكونها موجودة فعلا ، العهر هو شيء تعيشه ، ان التفكير بالجنس بأنثى تلتقيها وتكلمها بلباقة رجل ، مع اخفاء نظراتك الآكلة لها اسوأ الف مرة من ان تخبرها بنيتك

اتجاهها ، والعكس كذلك ، عندما تنظر الفتاة الى جيب الرجل قبل حبه لها ، قبل تودده لقلبها تلك هي العاهرة ، لا من صارت عاهرة بكلام قالته اخرى بساعة استشراف .

كلامها كان في صميم الحق ، لماذا المرأة عاهرة وليس الرجل عاهرا ؟ لماذا كلمة الشرف تتعلق بالمرأة دون الرجل الذي يخوض الحياة بين بيوت الدعارة حتى يصل الى الزواج ببنت خرجت من المسجد ، هذا العهر الذي يولده المجتمع الفاشل الذي يحكمه ان فلانة قالت .

حاولت ان ادير دفة الحديث لكلام اكثر لباقة لكوننا لم نلتق منذ مدة ، بدأت اتكلم عن تفاصيل العمل واخر اخبار اخي التي تصل الينا من هنا وهناك ، اثناء الكلام معها رن هاتفي ، كانت ريم المتصلة في وقت على غير العادة ، استأذنت ليلى ثم قمت الى جانب منعزل ، كان قد بقي على الامتحان ربع ساعة ، لم يكن مناسبا ان انفتح بالكلام معها كي لا اضيع لهفة الكلام بقطعه ، لكنها صدمتني بأخبار ان امتحاناتها الفصلية ستكون عندنا في الجامعة ، في القسم المجاور لقسمي ، قلت بكلام متقطع : ريم ، هل سنلتقي اخيرا ؟؟ . ساد الصمت ، واطبق ، لم يكن الوقت المناسب للسكوت ، كنت على عجل ان اعرف الاجابة الحادة التي سوف تقطع شكي بتلك الفتاة الالكترونية اخيرا ، لكنني احببت ان اتلقى الجواب ليلا بعد ان تجتمع النجوم على طاولة الظلام ، عندما يتجمل الكلام بشيء من الليل ، شيء من الارق . استأذنتها من اجل الامتحان ثم انطلقت الفلف نفسي بفرحتي غير المكتملة ، النقصان دائما لب الجمال ، لا اعلم كيف كانت جابتي ، لم يكن الامتحان شغلي الشاغل ، كنت اتخيلها تضحك بين سطور الدفتر الامتحاني ، مع ذلك انهيت الامتحان سريعا وخرجت من القاعة ، وجدت ليلى امامي تضحك فقلت لها : ماذا هل تجدينني اكثر جاذبية ؟؟ .

_ كلا اطلاقا ، اجدك اكثر جنونا من ساعة مضت . ماذا قالت لك لتجعلك هكذا مستغرقا في بسمتك ؟

ـــ لا شيء اكثر من المطلوب .

ـــ وما هو المطلوب ؟

ـــ ستعرفينه لاحقا .. والان علي ان اذهب للعمل نراك في الامتحان القادم .

ـــ اهاا ، هكذا اذا اسرارك بعيدة عني ، سوف تندم. الى اللقاء .

الليل كم هو بعيد ، لكن انتظاره له طعم شقي في الشوق المتذوق له ، انتظارها كان كرحلة تسير بك الى بلدة تقصدها لجمالها ، لكنك تجد في الطريق ما يؤنس لك رحلتك ، وتسمع من القدر ما يزيد لك شوقك لوجهتك ، حيرة تجتمع عليك ، لا يمكن التفريق والاختيار ، لا يمكنك سوى ان تفترش حياتك في تلك الرحلة ، لكن النهاية التي تنتظرها انت ، هل هي فعلا النهاية ، ام ان الدروب القدرية قد خبأت لك ما يكفي لانتزاع الفرحة منك .. يااااه ، ليس هذا الذي يجب ان افكر به ، عندي موعد مع فتاة الكترونية سوف احدده الليلة ، سوف تترجل من فقاعة التكنلوجيا الى ارض الواقع ، من عالمها الخفي الى عالمي ، اخيرا سوف يلتقي العالمان في لحظات قصيرة مهما طالت ، كما الكسوف ، قمر سوف يقابل الشمس بحيويته ، قمر سوف يتكرم اخيرا بأن يعطي وجهه للشمس ويدير ضهره الى الارض ومن فيها ، كل من فيها عدائي للحب ، عدائي لذلك اللقاء .

****

عندما وصلت بالليل كنت قد ارهقت من التنقل في المطعم ، لكني كنت لا ازال قويا لكي انهي الغموض بموعد لا يطول عن ساعة ، اتصلت بها لكي يطمأن قلبي المعلق بالقبول ، لم اشأ ان يكون بداية كلامنا عن اللقاء ، اردت ان استفسر عن احوالها كذبا وتمهيدا للطلب القاضي بيننا

، هل سنلتقي ؟؟ عاد الصمت ثانية ، لا اعلم هل كان علامة للرضى ، ام انتظارا ان اجزم الموقف واخبرها انني قادم بلا نقاش ، ان انهي لها لعلني بنظرها الرجل الالكتروني ايضا ، لعلها لمحت لي لأقوم بخطواتي القادمة ، لذلك قمت بختم النقاش مستغلا سكوتها وقلت لها ان تنتظرني في مدخل القسم الذي سوف تمتحن بها . قالت بشيء من السكوت : "حسنا " .

اردت للحظة ان الغي قراري لكني كنت مصمما ان اراها اخيرا ، كان امتحانها باليوم الثاني ، على الرغم من اني لم يكن لي غرض في الجامعة فامتحاني القادم بعد اسبوع ، لكني بدأت اتحضر للذهاب بحجة انه يوجد محاضرة اضافية ، يجب علي ان احضرها ، كنت احب ان اتمم كل شيء بلا اي مخلفات شك ، كأنني قاتل يلملم اثار جريمته ، فعلا اصبح الحب في بلادي جريمة يجب ان تلملم اثارها من كل الجوانب وهذا ما فعلته . بدأت اتحضر بلهفة عاشق ، وشوق غريب ، بفضول يطبق اسنانه على عقل مخمور . ما أطول الليل ، وما ابعد الشمس عن شرقها ، ليلتها رفضت ان اكلمها كنت اختزل كل الكلام الى اللقاء المنتظر لكي نتسامر مجددا وجه لوجه ، نسهر تحت ضوء الشمس ، نختلي بين اعين الناس في ساعة نقضي بها ما كان ساكت طوال الاشهر العشرة الماضية ، حادثتان كانتا كفيلتين بأن تكون نقطة زمنية في الحياة ، يوم عرفتها ، ويوم النكسة ، وشتان ما بين الحادثتين ، لكنهما يجتمعان بميزان واحد ، ويقاسان بشيء واحد هو القدر ، قدر يجمع اسمين في خانة طلبات الصداقة ، ويجمع اسم ثالث في جريدة مداهمة ، لطالما كان في الحب ثلاثة اطراف ، اثنان عاشقان يلفهما الوجد من كل جهاته ، وثالث حائر في مصيبة الفها به الحب ، او لفتتها به الحرب .

من واجب الكاتب الروائي ان يصنع الحقيقة ، ان يضع في الحروف الروح ، من واجبه ان يعجب بكل شخص تمزقت اطراف قلمه من اجله ، لكن ماذا لو كانت هذه قصتك انت ، ماذا لو كنت انت البطل الذي فقد بطولته ، من هو الشخص الذي سوف يرحل من اطار روايتك

اخيرا ؟؟ . في الحياة ، اشد ما انت نادم عليه هو الذي لم تفعله ، في ساعة كان من المفروض ان تفعله ، لا يمكنك ان تتحمل اللوم الذي تسمعه من اذانك اخر الليل ، الاذن في الليل تقول لا تسمع ، الاذن اشد جرأة من اللسان ، اشد معرفة بك ، اشد اعضائك لوما وألما .

ماذا عن تحضيرك ، هل احضرت القلم والورقة معك ، هل ستدون احداث اللقاء ، ام لعلك ستسجلها وبعد ذلك تتفنن ادبيا بصياغة لقاء دام خمسا واربعين دقيقة ، لا لا انت تبالغ كثيرا ، هذا اللقاء سيكون عاديا ، كسر خوف ، انتظر بقية الايام التي ستكشف لك فتاتك ، لن تكون بعد اليوم الكترونية ابدا ، ستكون جاءت من عالم التكنلوجيا فقط . لكن ، هل حان الوقت المناسب ان نلتقي سوية خلف الكواليس ، انه لقاء استنزف كل خشبة في المسرح تضحية لنا ، لكننا لم نشأ ان نلتقي خوفا من نكون غير مؤهلين لتلك الطاولة .

هذا ما كان يدور في عقلي عندما كنت في السيارة انتظر الوصول الى الجامعة ، كنت اصطنع التصرف الاعتيادي ، لم اشأ ان اكون غريبا عن ما كنت عليه من خلف الهاتف ، لا يمكن لصوتي ان يكون مختلفا عن شخص ستقابله اليوم . شكلا وصوتا هكذا اخيرا سيتم جمعنا ، دارت الارض لتوصلني الى هذا المكان بشغف من الحب ، وخوف من المجهول .. الذي لن يكون مجهولا بعد اليوم .

وصلت الى الجامعة مبكرا ، قبل موعد اللقاء بساعة ، ذهبت الى كافتيريا هادئة ومغلقة ، وحجزت طاولة لشخصين ، وبعد ذلك جلست انتظر قدومها ، انتظر هاتفها . عندما رن هاتفي اجبت بسرعة : انا انتظرك لقد تأخرت .

رد صوتها المرتجف : لقد وصلت هل ستأتي الي ام ..؟

قبل ان تكمل قلت لها انا في طريقي اليك ، ذهبت اليها مباشرة ... والتقينا .

ما بين اللحظة التي تشاهد فيها صورتها ، الى اللحظة التي تلتقي بها هناك ساعتين زمنيتين ، ساعة تحسب لك ابعاد الزمن التي يقطعها العقل شغفا وانبهارا ، وساعة تحسب الزمن الذي ينقضي بعد الانبهار ، كان بين الساعتين هذه ستة اشهر ، كان بينهن ستة اودية ضاع فيها العمر ، ساعات تندم انك لم تطلب اللقاء منذ البداية ، الزمن وقت اللقاء كان يشهق ثوانيه بغصة ، الساعة لم تكن بأنصاف ، بين المكان الذي اصطحبها منه الى المكان الذي سوف نجلس فيه لأقول ما حفظته البارحة مسافة لا تتعدى كونها المئة متر ، لكنها كانت مئة ميل يتباطأ شوقا ويسحب ارجلنا اليه ، حين جلسنا كان كل شيء مختلف ، كنت منبهرا لم اقل منذ الدقائق الاولى حتى هذه اللحظة غير : مرحبا يا ريم كيف حالك ؟

ـــ بخير الحمد لله .

بصوتها العاري من التكنلوجيا ، بحيائها المدفون خلف وجنتيها الدمويتين ، كيف لها ان تدفن كل ما يفتن بها ثم تظهره كلمتين وسكتة وخفضة للعين .

لقاء كان خلف كواليس الحياة ، كل الكلام الذي حفظته البارحة لم يكن الا هباء نسيته اليوم ، كل حساباتي التي وضعت ترقبا منه او له ، خوفا منه او خوفا من فقدانه ، لكنني كنت اقرب للسقوط هنا ، كنت على مشارف الفتنة بها . في الكافتيريا التي جلسنا بها ، طاولة لشخصين ، ليس للقدر فيها كرسي ليجلس عليه ، لا شيء غير الحب الذي فرش اوردته على الطاولة المستديرة ، وانا جالس بجانبها ، والحب هو من امسك بيدينا ليدعو لنا ، كان الذهول هو سيد اللقاء ، رغم انني كنت الطرف الذكري لم اكن المسيطر على الموقف .

على الرغم من انها امتلك جانب الجمال والاناقة ، لكن لم يكن ذلك هو الذي يستحوذ علي ، وليس ذلك الذي سلبني عقلي ، لا يمكن لرجل اعتزل غض البصر ان يسكر بالجمال بعد ذلك . كان ذهولي بها صمتا صاخبا ، بموسيقى جاز تخرج من اللاشيء ، لم يكن ردائها الازرق ما

يجذبني ، لكن صمتها الذي ارتدته جعلها اشهى مرارا ، لم اشأ ان تتكلم فتخلع ما يبهرني ، وكنت اخاف ان تظهر ما قد ينهي علي عقلي منذ اول لقاء ، صمت كان يفرض نفسه على كل خطيب بالمنبر . كما هو البرد ، لا يمكن قياسه الا بدرجات الحرارة ، كان صمتها لا يقاس الا بأوزان الكلام ، بنغمة من بحر السكوت على تقاطيع من حروف يحركها ضجيج ويسكنها الحياء . كما في الظلام لا يمكن دراسته اصلا ، لكنه محير بوجوده ، سبب لغياب الضوء ، كان صمتها هو السبب القاتل بغياب الحروف ، سرعة الصوت وسرعة الصمت ، لا يمكن الا ان يسبق الصمت هيبة فما الكلام الا ان يخلع المرء افكاره ليطرح بها في الطاولة ولم تكن لتسمح ان تخلع شيئا حياءً من الستارة التي تحجبنا عن المسرح الحقيقي في الحياة لكون الموعد هو الاول .

لم نتكلم الا قليلا ، لن ابالغ اذا قلت انني كنت جالسا اتأملها ، كان بي شوق ان امسكها ، كنت اتمنى ان المسها لأطفئ عن نفسي نار الفضول ، لكنها كانت خطوة خاطئة . كنت اترك الكثير من الاشياء الى اللقاء الثاني .

****

عندما تتعثر فى رقصة التانجو .. يأخذ الراقص الأبرع مكانك .

بي جمل من الصعب صياغتها ، او بالأحرى من المستحيل ان ترمى على الورق ، ترفض ان تنزل من مستويات الخيال ، لكن وجودها مؤذي جدا ، قد يظن البعض انني كاتب مجنون ، عندما كنت اسرد هذه القصة في عريني الخاص ، الذي سنتكلم عنه فيما بعد ، فليس من الجميل ان نستبق احداث تعتمد على الانتظار ، كنت عندما اكتب لا اسمع من يتكلم من حولي ، كنت انفصل تماما عن العالم ، كأنه نوع من الجنون ، عندما ارتبكت من حوادث اللقاء كنت كمن اصيب بالصرع بلحظة من الانفعال ، لذلك كنت من الذين غلبهم الجنون ، وهم معذورون .

في ما جرى هنالك خلف الكواليس ، كان لا بد من ان يكتب السيناريو القادم بما يتماشى مع لقاء العمر الذي حصل ، لا بد من وجود فصل يتمم بما يمليه عليه ضمير الحياة الذي لن يحرم قصة كهذه من الاكتمال . ولن يفعل .

بعد تلك الحياة ، وذلك العالم اكتشفت في نفسي الشيء الذي يتمم كل هذه الساعات المقطوعة شغفا وحبا ، بساعة فلكية تتمم علي فرحتي التي اردتها ، اني كنت اعترف بين الجوارح سرا بلا بوح خارجي لأي احد انني فعلا سقطت اخيرا في حبها ، لكن لا يزال الوقت مبكرا على الاعتراف لها ، كانت آمالي تتعلق حاليا باللقاء القادم ، لقاء كنت قد بنيت عليه حبا واعترافا . ركنان اساسيان في بناء المستقبل معها .

كنت اكتم شوقي لكي لا نتكلم عن اللقاء ، ولا تسألني لم كنت احدق فيها كل تلك المدة ، قد تسقط موهبتي التمثيلية في تلك الساعة ، لذلك بقيت صامتا مذهولا الى اليوم الثاني ، بعد ان اخذت منها وعدا على موعد اخر ، لكنها قالت " سوف احدده انا " .

انقضى المجهول ، وبدأ العصر الجديد ، كان على الراقص هنا ان يبرع اكثر فالموسيقى بدأت تتسارع اكثر فاكثر ، كان المسرح الازرق يتلاشى ليسكن الى مسرح بلون مغاير ، مسرح يميل

الى لون الحقيقة ، الحقيقة التي اخفيها انا ويظهرها الواقع ، والغموض الذي تحمله هي ، ويخفيه الحب الاعمى الى ذلك الوقت . ماذا لو لم اعجبها ؟؟ ذلك وارد جدا ، ماذا لو لم اكن الراقص الذي توقعته ، الراقص الذي سقطت هويته بين الانحناء السابق فلقد كان انحناءً صعبا جدا ، كنت ادفع الرغبة في الاكتشاف الى وقت ابعد ، لكي يتسنى لي الوقت بان افرش فرحتي لمرة واحده قبل ان يسرقها غريمي من خلف المرآة .

****

ببداية الفصل الجديد ينقلني القدر الذي يخط سيناريو الاحداث من مسرحي الى مسرح اكثر كثافة بالحب اطول موجة في اللهفة واصعب مواجهة للحرب ، هكذا ليحدث الانكسار الضوئي بعالم مظلم اواجهه ببصيص من الحب ، من فتحة اظن انها المهرب الاخير ، الجمهور في هذا المسرح مختلفون ، يكاد يكون مسرحي الجديد اشد غضبا من الحب ، لا يزالون يعتقدون ان الوقت لا يناسب ، كيف لقلبين ان يلتقيا بين امطار الصواريخ ، كيف لهم ان يبنوا ديكورا على انقاض الحطام ليكون عش الحب بهذا العالم ، جريمة العاشق في نظرهم اشد حرمة من جريمة الحرب ، لا يوجد حب كلها حروب مليئة بالجرائم ، لكنهم الى الان صامتون ، يرحبون بي كبداية ليشهدوا الجريمة المدبرة امامهم ليحاولوا اجهاض الحب في اشهره الاولى قبل ان تنفخ فيه الروح ، حبكة الحب يجب ان تكون اشدها دموية لا يمكن لقصة تبدأ بتسجيل دخول الا ان تنتهي بشيء من الخروج بلا عودة ، لكني سأقاتل من اجله ، اعلم انه يستحق ، شهيد في سبيل الحب لا يلفظ من كلماته الاخيرة نداءً للوطن بل يرتمي لسانه في قصيدة اخيرة ، انها فرصة واحده لا يمكن ان يعاد الحب في حياة اخرى ، اذا لم انتصر لا يليق بي ان اعتلي مسرحا بعد الان لا يمكنني ان اجابه الجمهور في قصتي ولا يمكنني ان ارقص ثانية اذا خسرت ، رقصة الحياة تنتهي اما بقبلة او تنتهي بكسر قدميك لتحرمك الرقص الى الابد ، لا يوجد تجربة في الحياة كلها فرصة واحده تتوزع تلقائياً على الناس بشيء من الالم يحرقه بعضنا بأول سيجارة ، وبعضنا يستنشق

الالم حد الاختناق ليعيش فرصته بنفس واحد ويختم حياته بتسجيل خروج ، وبعضنا يحرق بذلك الالم فلا يمكنه ان يستمر ، ليس لوقت طويل فيترك الحياة تجري على رقبته الى ان يخرج منها .

****

في الليل اتصلت بي ، كنت ممددا على فراشي افكر بها ، كنت قد وصلت من العمل قبلها بنصف ساعه ولا ازال متعبا منه لكن لا يمكنني ان ارفض لها مكالمة ، رددت مباعدا الصوت المتعب واستبدلته بصوت اكثر راحة واستجماما : أشتقت لك ..

ردت بصوت احمر يشوبه الحياء : بهذه السرعة ؟؟ كيف حالك ؟

ــ بأحسن ما يمكنني ان اكون ، وانت ؟

ــ بخير ، وجدتك قد انقطعت عني فاتصلت بك ، يبدو انني لم اعجبك .

ــ لم تعجبيني بل كنت مبهرة جدا . الواقع يجملك كثيرا .

لحظة صمت ، هذا استباحة شاملة ، لا يمكن ان ادخل هكذا لكنني فعلت ، كانت المكالمة مختلفة جدا ، كنت هائما بها ، وكانت ترد بصوتها الخجول ، ارادت مني الاعتراف ، لكنني لم افعل ، لا اعترف خلف التكنلوجيا ، اردت ان انهض امام المقاعد لأقول لها بكل احرف ، وكل سقطة وكل انحناءة اردت ان اشهد خشب المسرح ، والجمهور ، اردت ان اقول لها احبك بعد شهادة الجميع بلا عتب من شيء ، بلا خوف من الحرب ، بوجه واحد هو وجه الحقيقة .

اذا لم تخرج بكل اعماقك ، او ان تصرخ بها كل احشائك قبل صوتك .. لا تفعلها . اذا كنت تفعلها من اجل سرير او نشوة او نزوة ، لا تفعلها . ان كنت تريد ان تتباها بها امام الناس ، لا تفعلها . ان لم تخرج منفجرة منك ، بلا مقدمات ، برغم كل شيء ، وفوق كل شيء ، وليس من

اجل شيء ، ان لم تخرج بلا طلب و بلا تلميح او عناء ، بلا تفكير كيف تقولها ، بأي صيغة او اي تعبير ، اي الكلمات التي تليق بها ، وايها لا تليق ، لا تفعلها . لا تجعل ذلك الحب لذاتك يجرك الى اعتراف لست مستعدا له ، العالم يتثاءب من الحب الابله الذي يطوف بالأرض باحثا عن سرير ابيض في ليل اسود ، لا تضف نفسك فردا الى هذه المجموعة ، العالم سأم منكم ومن عشقكم المصطنع ، ومشاكلكم التافهة . انتظرها ، عندما يحين وقتها ، ستفعلها تلقائيا ، ستفعلها بلا شروط ، ستكون جديرا بها ، اما ان تموت بها ، او تموت هي بداخلك .

بعد صمتنا الذي دام ثواني معدودة ، ادرت دفة الكلام ، بعد موج من الخجل الذي اجتاحها ، وآخر من الغزل الذي اجتاحني ، امور اعتيادية ، بدأنا نتحدث بها ، حتى وقت متأخر ، ثم ختمت الحديث بالعودة الى المنعطف الاول ، " متى لقائنا القادم يا ريم " الصمت مرة اخرى لكن كنت مصرا ان تجيب هذه المرة ، " اتركني ادرس هذه الايام ، وبعد ذلك سوف احدد موعدا اخر " .

اغلقت الهاتف بعد ساعتين من الكلام ، كالعادة كان عن اللقاء المرتقب ، بعد ذلك استلقيت مسلما نفسي الى النوم والى حلم اتمنى ان تكون هي فيه . في الواقع ليس من السهل علينا ان نختار الحلم في النوم ، ليس صحيحا هو ان ما تفكر فيه سوف تحلم به ، في الواقع هو العقل الباطن الذي يعطيك الدرب الذي ستنطلق اليه روحك ، اسميه العقل الظالم احيانا ، لا يكاد يفرحك يومك الا ووجدته يأتيك في العالم الروحي الاخر ليوقظ فيك مفاجئة الحياة الخرى ، لكنه لم يفعل في ذلك اليوم .

في اكثر من صيغة واكثر من حالة هناك سؤال قد يستفحل مكره وطلبه ، كيف هي الحياة عندكم ؟؟

ان الحياة في بغداد مناسبة الى ابعد حد لكاتب يريد ان يسقي روايته من جوع الشعب ، لا يمكن للكاتب ان تستلقي روايته على فراش من حرير ، بل على صخر وبرد ، ان تنام الرواية في الطرقات والازقة الخاوية ، ان تشتعل بمحرقة حقيقية او مزيفه ، اما في موطني ، كان لكل رواية ساقية من الدم الاصلي لا الزيف ، من معاناة شعوب ، لكل رواية سمفونية خاصة من عزف القنابل ، شظاياها من المفخخات والانفجارات ، شظايا حروفها المزينة بشئ من اشلاء القتلى على الرصيف ، لها حدودها اللانهائية من رؤوس الاسرى التي تجر ، وبلاغتها من الاسئلة التافهة التي تطرح ، وانتشارها بان الكل يعلم ما في بلده من مآسي ، والكل صامت .

كيف هي الحياة عندنا ، ياله من سؤال استفزازي ، لا يمكن الشرح بلا رؤيه ، ولا يمكن الرؤية بلا مآسي والم وفقدان ، لا تعلم من دور الاعلام والصحف التي لم اطالعها بحياتي غير جانب واحد يتسلط الضوء عليه ، هو الاستنكار .. من ماذا تستنكر لا تعلم ، المناشدة ، وكأنك حين تطلب من احد ان يتوقف عن ضربك قد يتوقف ، لكن هذا الضرب من الجنون كان يمارس في الاعلان بشكل تستحي منه الجرائد ذلا من قائليه ، منذ متى كانت الحقوق تطلب ؟ ؟ . لا يمكنك ان تستنفر كل طاقاتك الشبابية لاسترداد حق من حقوقك بكونك مواطنا في بلد لا مواطن فيه ، عليك فقط ان تستفز المقابل بسؤالك كيف الحال عندكم ، نردده بين النقطة والاخرى ، بين المحافظة والاخرى ، كل مكان له وضع خاص به ، كل مكان له جائزة شهرية بعدد القتلى التي يصدرها لبقاع المقابر ، لكن بطريقة اخرى لا تشابه جارته ، لم يعد للجنون مستشفى غير الحياة ، بل يجب ان تبني مستشفى للعاقل الذي لم يجن ولم يسأل بحياته سؤال .. كيف الوضع عندكم .

في الصباح اتصل بي ابن خالتي ليردد علي هذا السؤال ، لا املك الرد ابدا عدا : "بخير ، لا جديد ننتظر الاخبار " انتهى . هذا الرد الذي يمارسه كل الناس حول هذا السؤال ، من اين يأتيك الجديد ، لا احد هنا يطالع الاخبار غير المتقدمين في العمر الذين افنوا حياتهم في هذا البلد

وينظروا الى خرابه ، تكلمنا بمواضيع عامة هاربين من الالم الممل ، كان قد بدأ بالعمل في شركة للنفط في البصرة بمرتب جيد و وبدأ يخبرني عن الصفقات التي تهرب النفط وتقوم بسرقته و كم من الاموال نستخرجها من هذه الارض ، انهى كلامه ثم ذهب طالبا مني ان ازوده باخر الاخبار ، وانه في بعد ايام سوف يأتي الى بغداد ليرى امي ويرى وضعها ووضع المحامي .

بعد ان اغلقت الهاتف ، حضرت فطوري المعتاد ، كنت قد اتفقت مع صاحب العمل انني سوف احضر له في الصباح لأبدأ بالعمل وسيكون الليل للدراسة لان امتحاناتي بدأت .انهيت الفطور بسرعة ، وسلمت على اي ثم خرجت قاصدا العمل .

عدت الى المكان الذي اتنقل فيه بين اضلاع الحياة ، كان يوما هادئا منذ بدايته ، فعملنا يعتمد على الموسم الدراسي لقربنا من بعض الجامعات ، بعض الزبائن الصباحيين ، وذات العينين الخضراوتين .. لوحدها هذه المرة ، لكثرة تعودها على مظهري ووجهي لأني الذي يقدم طلباتهم ، اصبحت تعرف حتى اسمي ، وجدتها هادئة كعادتها ، لكن غرابة الوحدة في وجهها ، مع ذلك تقدمت اليها لأعلم طلبها ، " قهوة كالعادة ؟؟" نطقت بابتسامة الصباح ، رفعت رأسها من هاتفها متأملة وجهي بعقل شارد في مكان مغاير للواقع ، "كلا ، اريد عصير ليمون ".

رغم غرابة الموقف بالنسبة لي ، وحالتها التي تبدو متدهورة بعض الشيء ، لا يكنني ان اترجل من اطار عملي ، فما انا سوى نادل ، ولا يخصني ما تمر به مهما كان . دخلت الى مطعم مقدما طلبها الى المطبخ ، وضحكات العاملين تملؤه ، نطقت رغد العاملة معنا " مابها حبيبتك ، اراها منزعجة اليوم ووحيدة " اطلقت ضحكتها وابتسمت انا ايضا وقلت " منذ متى هي حبيبتي يا رغد ام انك بدأت تغارين " .

ـــ اغار ؟؟ ادامها الله نفقة للمطعم فهي اكثر الزبائن حضورا ، واظن انها وقعت في غرامك حتى اسمك ، اظن ان عليك المبادرة رقم الهاتف سريعا ، الانثى تعطي فرصة فاذا انقضت فرصتك فلن تعوض .

ـــ اخشى ان تكوني جادة في كلامك .

ـــ انا كذلك لكن لا تلتفت لي اذا رفضتك .

ضحكنا جميعا ثم نطق المدير الذي كان يقف خلفنا بصوتها الخشن :

ـــ نعم ، تقدم بخطوتك لها ، واذا رفضتك ولم تأت بعد ذلك سأقوم بطردك .

ضحكنا جميعا ثم انتبهت اليها تنظر الينا ، جهز العصير ، ثم وضع حسين ورقة فيها رقمي على الصحن : تنقصها وردة لتكون باسلوب فرنسي رائع .

ـــ حسنا ليس اليوم لننتظر اللقاء القادم .

أزلت الورقة والكل ينظر الي وانا اقدم لها طلبها كأنني اقدم لها خاتم الزواج ، قدمت طلبي مبتسما كالعادة ، فنطقت : قل لي يا فارس هل يسمح لكم التكلم مع الزبائن ؟

ـــ على قدر الحاجة فقط .

ـــ حسنا ، هل تستطيع مشاركتي اليوم على الطاولة

ضحكت من نظرتي المستغربة واضافت

ـــلا تخف لن اصارحك بحبي انا فقط اشعر بالملل لكون صديقاتي في تركيا وانا وحيدة منذ اسبوع .

ـــ لا اظن ان المدير سيرفض .

ــ اذا اجلس وانا سوف اكلم المدير ان حصل طارئ ما ، لكن على الكلام ان يبقى سرا ، لذلك اخترتك انت لا فتاة من اللاتي في الجامعة او حتى في المطعم .

ــ لم افهم .. انا ؟ ؟

ــ اقصد ذكرا لا انثى ، غريب لا يعرف حتى اسمي ، اظنها صفات مثالية لشخص ن الممكن ان يعرف عنك بعض التفاصيل الثقيلة على القلب .

جلست مقابلها جاعلا الطاولة حاجزا بيننا لاستمع لها ، كان وجهي مقابل المطعم ، شاهدت ان المدير يضحك ويقول بالإشارة سوف تطرد .

اغلقت هاتفها ووضعته من يدها ، ثم بدأت تتكلم بهدوء كنت اشاهده من بعيد عندما كانت ترافق صديقاتها الى هنا ، لقد كنت منتبها عندما غابت اسبوعا كاملا واليوم ظهرت وحيدة ، بشالها الاخضر الغامق مناسقا لعينيها وسترتها ، مع تنورة سوداء ، كانت ملامحها من قريب بعد تأمل بلا خوف او حياءً ككل مرة ، اقرب الى الكبر ، كأنها سابقة لعمرها ، ثلاثينية ، لم تكن توحي الى انها طالبة جامعة لا تزال تدرس ، لكن عنايتها بنفسها ووقارها بصمتها وهدوئها كان يضع شخصيتها اهلا لذلك العمر ، ليست من الفتيات الطائشات الاتي يبحثن عن زوج يأمر لما تبقى من العمر فقط كي لا يقال عنها عانس ، الحيرة الاساسية هنا ما الذي تريد قوله ، لشخص غريب لا يمكنه ان يبوح حسب ظنها ، لن اهتم سأستمع فقط ، لا يجب علي ان اتدخل ، او ان اسأل ، بالأحرى لم يكن يهمني كثيرا ، لكنني جلست . في كل حديثها كانت تسأل عني وعن حياتي ببعض الملل ، كأنها تلتف حول ما تريد قوله بصراحة . عمري ، دراستي ، لم انا اعمل ، وهذه الاحاديث العادية ، سالتها عن قسمها الجامعي ، وعن صلة قرابتها ببقية الشلة ، اخيرا سألتها عن عملها بشيء من الحذر متحاشيًا ان اظهر ما سمعته ، لكنها كأنما تعلم الذي سمعته ، كأنها سمعت نفس الكلام الذي قيل لي . نطقت بابتسامة : عملي في صالون تجميل ، قريب من

بيتي ، في الواقع انا املكه ، كنت متزوجة سابقا ، زوجي اصر على ان اترك دراستي ، بحجة ان مكان المرأة في بيتها ولا يجب عليها سوى ان تتعلم الطبخ ، وافقت على طلبه وتركت دراسة الجامعة منذ السنة الاولى ، لكن زواجي به لم يدم سوى ستة اشهر ، ثم طلقني بعد وفاة والدي بشهرين ، وكان سبب وفاة والدي هو شجار حصل بينهما ، طلبت الطلاق باصرار غير مسبوق وتم ذلك ، بعد ذلك عدت الى اخوتي وقمنا بتقسيم الميراث حسب الشرع بلا ظلم ، لكن اخوتي قرروا ان يعيدوني الى زوجي و لكني رفضت كل شدة ، انتهى الامر بخيارين اما ان اعود الى زوجي او لن اجد احدا يتحمل مصاريفي ، فانا كما تعلم مطلقة ولا احد سيتزوجها ، ومعنى هذا انني سأبقى عالة على اهلي ، هذا هو التفكير الحالي كما تعلم المطلقة عورة ، لذلك بدأت اعمل مع جارة لنا في صالونها الى ان جمعت ما يكفيني اضافة الى ما ورثته وفتحت صالوني الخاص . في هذه الاثناء جاءت اسراء وقدمت لي عصير ليمون وقالت : هدية من المدير من اجل جلستكم هذه . فقالت الفتاة : ارجو ان لا اكون اعطله عن عمل مهم اخبري المدير انني لن اطيل الحديث

ــ لا تخافي على العكس المدير فرح بوجودك الدائم عندنا . انصرفت اسراء ثم عدنا الى حديثنا فسألتها :

ــ الم تتزوجي بعد ذلك ؟ أو تفكري بالزواج على الاقل ؟

ــ لا ، لم قد افعل ذلك ، انا الان حرة ، دراستي وشهادتي ، وعملي ، لي بيتي الخاص ، حياتي كلها ملكي ، لست بحاجة الان الى زوج ينكد ما ابنيه بحجة ان مكاني المطبخ .

ــ هذا جيد ، انت مكافحة .

ــ مكافحة ولست عاهرة يا فارس .

ذهلت لقوة صراحتها ، لم اعتقد ان تقول هذه الجملة . اضافت :

ـــ اعلم ما سمعته انت وغيرك عني ، وعن الفتاتين اللتان تأتيان معي ، صدقني اعلم حتى من اطلق هذه الاشاعة عني ، ولست مهتمة ، لا يمكن ان ينتقل الانسان في حياته على مزاج الاخرين ، انا لا افتح قلبي عن طريق فخذي ، لو كنت كذلك لكنت على الاقل تزوجت ، او اخفيت مهنتي على الناس واخترعت مهنة ابعد ، لكن فتاة من الاتي عرفن بعملي ، اشهرت انني ادير بيت دعارة وانني اعيل نفسي والفتاتين منه بمبلغ محترم ، لا اعلم كيف اتت تلك الفكرة على بالها ، ولا اعلم ان كانت تدير هي بيوت للدعارة ام لا ، لكن هذا ليس عملي ، انا لست حاكما لأقاضي الناس على اعمالهم ، حتى ولو كان كلامهم واعمالهم تضرني ، هل تعلم ان احدى الفتاتين ستتزوج الشهر المقبل ، على الرغم من ان خطيبها سمع كما سمعت انت لكنه لم يكترث ، ولم يهتم ، ارى انك فعلت الشيء نفسه .

ـــ لست مسؤولا عنك او عنهن ، انا مجرد عامل في مطعم ترتادونه انتم ، والحقيقة اننا فرحون بوجودكم الدائم ، ولا ضير فيه ابدا ، الكلام يبقى كلاما .

ابتسمت بشدة هذه المرة ، كانت سعيدة بما قلته ، سعيدة بما قالته ، بوحها خفف عنها ، لكني لم اسالها عن اسمها لتبقى الغريبة التي يجمعني بها العمل وحده هي كزبونة وانا كناقل طلب من الحياة ، ليرتمي السر بين الطاولات فيموت الى الابد ، لأبقى طول العمر اذكرها على انها فتاة المطعم ، لقب فقط لا اسم فيه، ليست فلانة ، هكذا يرتسم السر بيننا ، وهكذا نلعب لعبة التعارف القدري ، بلا تفاصيل عن العنوان ، يبقى الجوهر فيها حكما فاصلا في الكلام .

تكلمنا لساعة تقريبا ، كلام عام دار حول الحياة ، لا احد يتطرق لخصوصيات الاخر ، لا نريد ان نفسد غربتنا عن بعضنا ، الاتصال الروحي بيننا كان هو الرابط الاساسي في الجلسة ، المعرفة التي لا تبنى على مسميات او عناوين ، لا تعرف عنه ما يناديه به الناس ، لكن تعرف ما يفكر به امام الناس ، وبما ينطق به للغريب ، وما يتفق به معك او يختلف به ، ما يبوحه برغبته الى الهواء المصاحب لغربة ولقاء لا يتكرر ، الرغبة وحدها تريد البوح ، لا يستمكن البوح بغيرها .

أنتهى كلامنا ، وانطلقت الى المحاسب دفعت حسابها ثم تكلمت مع المدير اعتذارا عن تأخيري واشغالي بها دون عملي ، لا اعلم ماذا تكلموا . لكنه كان واضحا انها تعتذر ، المهم بعد انتهائي من الجلسة الاعترافية كما في الكنائس ، يبوح المذنب بكلامه الى القس او الاب ، بذنب اقترفه ليغفر له الرب ، وجود الذنب داخل القلب دون طلب للمغفرة ، اقسى ما يمكن ان يواجهه الضمير ليس الانسان ، كأنما الضمير هو انسان اخر بداخلنا ، يتحدث بلا حياء عن كل شيء ، يواجه صعوبة في السكوت ، يخرج على شكل بوح ، او مرض ، او حلم ، او بكاء داخلي تتمنى لو انه يستحيل الى دموع واقعية ، قد يموت قبلنا بمدة ، قد يعيش بعدنا بما يبوح به ، قد يبوح بشكل كتابة ، هل حدث سابقا ان كتبت بلا وعي وكان انسانا اخر كتب عنك ما امليته . لكن لماذا القس يستمع لذنوبنا فقط ، اليس الله يريد منا العمل الصالح ايضا ، الا يمكنني ان ابوح بعمل صالح فعلته له ، حتى اباؤنا كل اهتمامهم هو ان الله يراقبك ان فعلت السيئة ، ألا يراقبني وقت الحسنة ؟؟ .

بعد ان انصرفت هي في طريقها ، ذهبت لأرى ما علي من اعمال ، لكنني وجدت الكل ينتظرني لأخبرهم عن جلستي الغرامية كما يظنون ، لا يمكنك ان تقول انها ليست كذلك ، هذا مخالف لقواعد اللعبة التي اتفقنا عليها ، ليس لي الا ان اعود الى الكذب لكن بقصة جيدة لا تمسها باي سمعة حب مع عامل مطعم . " جلسة تعارف " هذا كل ما في الامر ، ما اسمها ما عملها على المرة القادمة ، اذا كان هناك مرة قادمة ، نطق الدير بعد ان انهيت كلامي معهم بقصتي : لن تكون هناك مرة قادمة لأننا نحتاجك في المطبخ عليك ان تتعلم بعض الفنون من خالد لأنه سوف يترك العمل هنا لضرورة له .

هكذا بدأت اباشر عملي ، كانت لي خبرة بسيطة في الطبخ ، كنت قد اكتسبتها من امي ايام السلام البيتي البسيط ، ولم تمانع ان تعلمني بعد النكسة .

بعد النكسة ثمانية اشهر ، النكسة هي مؤقت العائلة ، الوقت الذي منها تبدأ حياتهم بالتغير الى شيء لم يعهدوه ، لم يفقدوا الى اليوم سوى واحد فقط ، لكنهم قد يفقدون البقية غدا ، او ان يهربوا الى المجهول ، المذهل ان المنطقة التي كنا نسكن فيها ، كانت مليئة بالبيوت الفاقدة ، لا يخلو شارع من بيتين او ثلاث على الاقل اذا لم يكن قد فقد على الاقل واحدا من ابنائه ، لذلك كان من الطبيعي ان يكسر فيها باب في منتصف الليل ليسحب احد الموجودين الى المجهول ، هذا طبيعي يشاهده الناس هنا على انه مشهد من المشاهد الاسبوعية في المكان ، لا مفاجئة فيه . لذلك كان لكل عائلة نكستها يجتمع النساء احيانا في بيت واحد وتروي كل ام كيف فقدت ابنها ، وكم سيتم من السنوات في السجن ، هكذا هي تقاليد الناس المستجدة ، في الواقع حدث هذا عندما اعتقل اخي ، قامت النساء في اليوم التالي بتعزية امي في مصيبتها ، املين ان يرده الله سالما اليها ، وكل ام حضرت الينا روت على مسامعنا ما حدث مع ابنها ، لا يوجد من اختلاف بالروايات والاحداث ، نفس القصة تتكرر ، ونفس الاعذار ، حتى انه لم يكلفوا انفسهم بانتاج عذر جديد .

ثمانية اشهر على النكسة وقت طويل لتبدأ احداث جديدة ، خلال هذه المدة كان اخي قد اتصل مرات عديدة ، وقابلناه لمرتين او ثلاث في احد السجون ، كان ذلك تخفيفا عن امي قليلا ، وان تطمأن ان ولدها بخير ، لكن تجهل القادم الذي سيحدث له ، او تصطنع انها تجهله ، كما البقية من المعتقلين ستدرج له اتهامات عديدة ، يقوم بالاعتراف عليها قسريا بلا اي رحمة ، ثم يعتلي خشبة المحكمة ليسرد اعترافه ، ثم ينطق القاضي المبجل بالحكم النهائي . هذا هو السيناريو بلا تعديلات ، بلا تطوير على مرور الزمن .

الوقت مناسب تماما لبدأ اللعبة الاقوى ، ما لم اكن شخصيا اتوقعه ، ان يتم درج اسماء جديدة من عائلتنا في تلك الجريدة ، لم يكن ابي .. بل كنت انا .

ما بين كسر الباب في مداهمة اخي ، ومداهمة المطعم لكي يسحبوني منه ، ثمانية اشهر ، ونكستين ، ولقاء . بينهما الم ، وام تنحب اولادها بالدور ، وسيارة اخرى ، توقيت اخر يدرج بين اضلاع العائلة ، لتتجدد فيهم الساعات الرقمية ، ليست الساعة ذات الستين دقيقة ، ليس اليوم ذو الاربع والعشرين ساعة ، انها مواقيت مختلفة مغايرة في عالم مظلم اخر يجهله من في الخارج حتى يدخل . جميعنا سوف ندخل في يوم ما .

لم يكن مضطرا هذه المرة ان يخبرني برغبته ، او ان يتحدث ، او حتى ان يفتش شيئا غير جيوبي ، لم يتركني لأغسل يدي ، او ارتب نفسي استعدادا للحياة الجديدة ، لم يكن مضطرا للكذب على ام ، او تزييف الحقائق لاب كبير ، او ان يحفظ المحادثة المعهودة ويمثلها امام احد ، كل ما كان عليه فعله هو ان يضع الكيس الاسود في راسي والقيود في يدي ، ويقتادني الى السيارة لأنام مقيدا بوضعي الجنيني في صندوق السيارة العسكرية . ومضت بنا السيارة الى الارض الجديدة مع البقية .

كما يحدث في الافلام ، عندما يركب البطل سيارة خارقة تقوده الى ارض الكنز العظيم ، الى الارض التي يحلم بها مع حبيبته الحورية التي تخرج من اضلاع البحر ، يستقبله السكان ليضعوا حوله القلائد الزهرية ، ويزينوه استعدادا لتتويجه ملكا عليهم ، ليجلس على كرسي السيادة في تلك المملكة ، ويقتني الكنوز واحلى النساء ، ليعيش هو هناك رئيسا عليهم .

الوضع شبيه مع بعض الاختلافات البسيطة ، فأرض الاحلام هنا لا ترغب في الذهاب اليها ، انها فعلا ارض الاحلام ، لأنك تحلم بها وقت الفزع والخوف ، تحلم بها ساعة ان ترتادها كيف ستجيب عليهم ، من اسئلتهم السخيفة على توافه الامور ، والسؤال الاعظم : " اعترف ماذا فعلت " . ارض الكنز ، كل ما فيها هو اغلى كنز للام وللاب ، للاطفال وللزوجة ، وللأخوة ، هذا كنزم مدفون تحت الارض . اما عن الاستقبال فهو ما لا يحلم به الشاب ابدا ، يزينوك ببعض المساحيق من الالم التي تعتلي وجهك قبل ان تتوج على كرسي الاعتراف الملكي ، وتمضي

على قسيمة زواجك من التهمة الموجهة اليك ، ثم تنظم الى مجموعة الملوك المتزوجين من تهمهم الى ان يتم الامر القضائي بك وتنتقل الى ملكة اخرى لها مواصفات الخلود الابدي حتى تتعفن جثتك .

لا ارى داعيا من وصف المكان و الحال ، لأنني مهما بالغت في وصفه فلن يتمتع القارئ به حتى يراه ، اذا رغب في رؤيته ، ومن لم يرغب في رؤيته لا يرغب بان يقرأ عنه . ما بين اغماضي عيني الى وصولي الى ارض الاحلام والاستقبالات الرهيبة التي لاقيتها هناك ، كانت الاسئلة تتوارى عليَّ كيف ستعلم امي بالأمر ؟؟

وكيف ستتقبله ، وكيف ستتحمل وقوعه ، لم يكن الم القبلات التي طبعتها بأساطيل الجنود على جسمي شغلي الشاغل بقدر ما يمكن ان تعانيه امي ساعة علمها بانتقالي المفاجئ الى جانب اخي .

دخلت الى الزنزانة المخصصة لي ، للمعتقلين الجدد ، كلهم مرحب بهم ازكى ترحيب ، احضروا لي الماء وازاحوا عني الدم الجامد السائل من انفي وفمي ، ثم اجلسوني ونطق احدهم " اهلا وسهلا ، انرت البيت والمطرح " وبعد رشفة الماء ، علي ان اخذ نومة خفيفة لا ارادية من الم الاستقبال ثم لأصحوا من جديد في عالم اخر ، لأبحث عن كنزي فيه .

****

لولا وجود الحرب ، لما كان للحب معنى .

العالم الجديد ، من اصول ضيافته انك لا تسأل عن شيء في اليوم الاول ، تنتظر ان يحين دورك في التحقيق ، لعل جهل كلمة التحقيق قد يؤثر على مسار الكلام هنا ، فالتحقيق في ارض الاحلام ليس التحقق من الجرائم واثبات الجاني ، انت جاني بسبب وجودك و عرقك و ودينك . انت الجاني لأنك انت ، لا يحتاج الى دليل لأنك سوف تعترف على ما سيقوله الضابط ، التحقيق هنا ليس جوابا تقوله بعد ان تسمع السؤال ، في الواقع لن تسمع سؤال ، فقد ستسمع التهديد و واصوات آلات التعذيب المفترشة امامك ، ينتقيها الضابط بعناية الالم ، لكي تفترش في قلبك الرغبة بقول ما يريد منك قوله ، ابدا بسرد العديد من الانفجارات التي تحصل ، انك خططت لها ، واغتيالات لأناس كبار ، سرقة بنوك ، قتل ابرياء ، ضباط و اخيرا اذا كنت لا تجيد التأليف فمن اصول المضيف ان يعينك ، ان يكتب الافادة بقلمه الخاص ، ويهديها اليك بتوقيعك عليها ، هدية ودية بين اثنين متحابين . لا مظلوم في السجن و ليس لديك رغبة ان تقول انك مظلوم ، انت لست كذلك ، انت متهم لكن بماذا ، فهذا ما ستقوله لهم بعد ان يأخذ العدل مساره الحق .

في الكلام عن التحقيق ، عندما تم سحبي في فجر اليوم التالي ، كان الضابط متعكر المزاج كالعادة ، واضح ذلك من صوته فانا لا يجوز لي ان اراه ، معصوب العينين ، ومربوط اليدين هذا طبيعي ، بدا الضابط بالكلام ، اول ما قاله ان اخي متهم بقضية ارهاب وقتل ، كان بودي ان اطلق ضحكتي لكن الجلسة لا تسمح بذلك ، قال انه اعترف علي ، وانني كنت شريكه في جرائمه ، كلها بلا استثناء ، انني كنت اجلب له المعلومات من الناس ، بدا يسرد قائمة الاتهامات لموجهة الي و على الاقل اختصر علي مشقة التأليف ، لكنني حاولت ان استبسل بقوتي ، ان اثبت انني برئ ، لازلت جديدا على اللعبة ، اراد ان يسمعني الكلام بطريقة اخرى ، ارادني ان افهم الموقف بصيغة اوضح ، لمدة ساعتين يوميا ، ولمدة اسبوع ، كان التحقيق يأخذ مجراه ، بعد ان

علمت انني في سجن الشعبة الخامسة ، علمت انه لا مفر ، اصيبت قدمي اليمنى بالشلل ، وكنت اسحب يوميا الى الزنزانة سحبا ، بسبب كوني لا استطيع حتى الحركة .

تم الاعتراف كالعادة ، على عدة مناسبات اجرامية قاموا بها ، ثم اسكتوا الشعب بانهم امسكوا بالمجرم ، المشكلة ليست في الحكومة ، المشكلة التي تستفحل في ارض الوطن المبجل ، ان لكل مجرم من يطبلون له ، ان كل مجرم صدق انه على حق ، انه الرجل المختار في هذا الزمان " مختار العصر " هذا ما يسموه ، لكن الحياة بقبحها كرهت وجودهم ، مع ذلك ، يأتي من يقول انهم على حق ، واننا مجرمون ، اننا نستحق ان نعدم نحن وعائلاتنا ، ان نجر بالشوارع ، وهذا حقا ما حدث مع بعض العوائل ، قاموا بطردهم لانهم " عوائل تنتج الاجرام " على حد قولهم ، لكن اذا كانت عائلاتنا تنتج الاجرام ، فما الذي تنتجه الحكومة اذا .كانت تقول امي ، فرعون لولا من حوله لما كان فرعون ، وفرعون العصر الذي وضع على رأسنا اشد من ذي قبله .

بعد الجولات التحقيقية ، واليأس من ان يتركوني ، والاضرار الجسمية والنفسية التي حصلت معي ، لم يبق لي مهرب غير ان اعترف ، توقيع واحد نسميها باللهجة " جرة قلم " اي سحبة قلم فقط ، وكلام امام القاضي مع ندم مصطنع .

عادة ما يؤخذ المتهمون الى المكان الذي حصلت فيه الجريمة تمثيلا امام الناس انهم يطبقون القانون ، هكذا اصبح القانون ، اعلاما فقط . اخذوني الى بعض الاماكن مع اخي الذي كان محتجزا في مكان اخر ، لم يسع لي ان اراه غير اوقات الكشف عن الجريمة ، هه الجريمة ، لا نزال نتكلم عن وهم ، كانت جرائمي كلها تفخيخ ، وعلمني احد الضباط ما سأقوله لكي اثبت انني كنت افخخ السيارات فعلا ، معلومات بسيطة ، لكنها تقتصر على ذوي الخبرة في مجال الحرب ، اما انا ، كانت خبراتي تقتصر على مجال الحب ، انا رجل من اشعار و قضى حياته بين دواوين مكتبته ، لاتزال تستبسل به القصيدة كي تفوح رائحتها ساعة الهم ، لكنها تكبت لأنه ليس وقتها ، ما الذي يمكن قوله ، او نسجه ، او صياغته ، انا لم انحب وطني يوما ، لكني كنت انحب الارض التي

تحمل البشر ، الارض هي موطننا وليس البقعة التي احتمينا بها خوفا من انفسا ، البشر .. الكائن الضعيف الذي لا يزال يتكاثر بوحشية ، عليه ان يوقف التكاثر كي لا يفسد ما تبقى على الارض من خير ، كائن يدعي السلام ولا يمت له في الواقع بصلة ، اننا الان نحتاج الى عصر انقراض ، كم مرة في وسائل الاعلام سمعنا ان الغزلان بدأت تتكاثر اكثر من السابق ، علينا ان نوقفهم والا ماتت الاعشاب ؟ كان هذا كثيرا ما نسمعه ، لكن لم لا نقول للبشر توقفوا عن التكاثر ، انتم تفسدون الحياة بأكملها وليس الاعشاب فقط ، نحن من خرق الاوزون ليس الغزلان ، نحن الكائن المتوحش ، الكائن الذي لابد ان يندم على فعلته يوما ما ، لان منه من الانواع ما لا تستحق ذرة هواء ، عليه ان يعيد تصفية المخربين من جنسه قبل ان تتم تصفيته من الذي هو اعلى منه .

بعد ايام وبعد ان تعودت على الذين من حولي من المسجونين ، وكل قال تهمته ، منا من ذهب الى المحكمة وانتقل الى السجن النهائي ، ومنا من ينتظر القرار ، انا لم ادخل المحكمة الى الان ، اما اخي فقد حكم بعشرين سنة ، مدة طبيعية ، كان موعد محكمتي بعد ايام ، لكنهم سمحوا لي ان اتصل بأمي واخبرها . في الواقع كان صعبا علي ان اكلمها لكنه كان ضروريا جدا ، اتصلت بها بصوت يخفي الالم ، كان علي ان اقول انني سليم بلا اي اذى كما فعل اخي ، كلمتها ، وسمعت صرختها المفاجئة ، كان لنا موعد لقاء في اليوم التالي اخبرتها به وبالمكان .

كنت سابقا قد حضرت لمقابلة اخي واعلم الصعوبة التي نواجهها في الخارج ، لكنني لم اكن قد عشت المعاناة من الطرف الاخر ، اي طرف السجين ، كان اشد ما لا يمكن تحمله هو الشلل الذي في رجلي ، لذلك كنت مضطرا ان اصل الى المكان بسرعة لان لا تعلم امي انني مصاب بذلك الشلل ، ليس من الضروري ان تعلم ، لن ينفعني ذلك الا ان ازيد عليها المها ، وصلت الى المكان المخصص للمقابلة ، ساعدني وقتها شعيب ، شاب معتقل بتهمة ايواء مجرم وهو يحلف انه لم يدخل اليه غريب منذ سنتين ، لكن لا يهم المهم انه متهم ، وصلت وجلست على الحصى انتظرها

، كان الجو حارا ، والحصى حار جدا ، اطبقت النعل وجلست عليه انتظر ان تجدني بين الجموع واخيرا التقينا .

كان موقفا صعبا ، تتلخص فيه الحياة من طرفين ، الاول هو طرفها ، طرف الاولاد الذين افنت حياتها في سبيل ان تراهم في الكبر ، هاهي تراهم بين قضبان السجون متهمين بتهم تافهة ، ليقضوا ما تبقى من العمر بين يدي من لا يرحم ، طرف الشقاء في تسعة اشهر من الحمل ، وعمر من التعليم والتربية ، طرف من القائمة قائمة الممنوعات الطويلة ، التي نجابهها عندما نقع في خطا ثم ننتهي بعقوبة ، اما الان العقوبة دون الخطأ والموت دون الحياة ، والطرف الثاني هو انا ، السؤال الغبي الذي اسأله لنفسي ، هل علي ان ابرر فعلتي ، ان اقول لها انا لم افعل كل ما اعترفت به ، انا جل ذنوبي انني كاذب ، نعم انا الكاذب ، لكنني كذبت لأنقذ نفسي واوقعها في نفس الوقت ، وصف الذي حصل ليس سهلا وانا الذي يريد ان يطمانها انه بخير بلا اي ضرر مسه طول حياته ، من يا ترى هو الطرف الاسوء موقفا ، طرف التعب شقاء العمر ، ام طرف العذاب والاعتراف الكاذب .

قالت لي انها وكلت المحامي نفسه الذي وضعته لأخي ، وانه سوف يقوم بفحص طبي قد ينفعني امام المحكمة ، لذلك اخبرتها ان تتعجل الامر بسرعة ، كلمتها اني بخير ، اني احتاج الى دعائها فقط ، سألتني عن اخي ، اخبرتها اني رأيته ايام الكشف فقط ، لم اره بعدها وهو محجوز في سجن اخر ، او زنزانة اخرى ، اخبرتها عن موعد المحكمة المنتظر ، اخبرتها بتفاصيل عن القضية وانها يجب ان تستعجل المحامي ، حتى لا تبدا تحقيقات جديدة كما يحصل مع بعض المتهمين ، بعد ذلك عدت الى الزنزانة ، المسكن الجديد ، من المضحك ان الطعام والشراب لم نكن نحصل عليه مجانا ، كل شيء كان بالنقود ، عدا النوم والمكان ، هذا هو الشيء المجاني الوحيد في السجن ، كنت قد اخبرت امي ان تأتي معها بمبلغ من المال .

من بين الاطراف المحاربة في الوضع الذي كنت فيه ، كان لابد ان يأتي عليك التفكير بالحب ، من بين العواصف الهائجة لابد ان تتذكر النسمة التي كنت تداعبها وتداعبك قبل ايام ، لا اعلم كيف سرح عقلي لأفكر بها ، كيف ستعلم ، ومن الذي سيخبرها ، وكيف ستتقبل الخبر ، من اي طرف هي ، هل ستتقبل الخبر على انني مجرم كان يخوض معها ساعات فراغه ، انني المفجر الي كان من الممكن ان يستهدف اباها او اخواتها ، ام انني المظلوم الذي يحترق ليل نهار بالتعذيب الممارس عليه كي يقر بجريمة وجوده في الحياة ، يا ترى على اي ضفة من الراي هي ، والاهم من ذلك الى متى سأظل محطة انشغال عقلها ، ام انها ستعتاد الغياب بعد ايام .

طاولة اخرى وطلبات ثانية ، يبدو ان مهنة النادل ترافقك حتى بعد ان تنتقل الى مهنة الطبخ ، مهنة التمثيل المسرحي تلازمك حتى بعد ان امتهنت الاجرام ، لن يتخلى المسرح عنك ، سيتغاير مع كل اطلالة تطل بها الحياة عليك ، ستتغير الحياة تباعا مع كل ما يمليه القدر ، خيره وشره . وهكذا عليك ان تواكب ، تقاوم ، الى اخر نفس ، الى ان يعلن القدر تسجيل الخروج بلا عودة هذه المرة.

المسرح الان ليس كما كان في الفصل السابق ، بعد ان انتهى التعارف ، الى المجهول والى ما بعد المجهول ، الان هو الفصل الذي يطيح بالراقص ، المدة التي تنتهي فيها العظمة الفنية لكل منا ، وكل ما يتركه على تراب المسرح الوقتي طوال سيرته ، هنا انت تترك كل الاقنعة التي تعودت ارتدائها في بيتك ، لترتدي قناع واحدا يسمونه الانتظار ، الوقت ليس مهما ، العمر ليس برقم يحسبه المرء في حياته ، العمر هو سنين التي تذكر بها بعد ان تموت ، عدد الاشخاص الذين سيفتقدونك ، عدد الحياة التي ستعيشها ذكرى فقط ، ما فعلت او ما اديت من ادوار بأتقان ، كل هذا تسجل عليه درجاتك في الحياة ، طريقة الحياة التي كنت بها ، واسلوبك في الرقص .

انا. كنت محتاجا الى تقييم نهائي ، كان الفضول يغتالني كي اعرف ما كان اثري في كل رقصة ، خصوصا الاخيرة . المسرح الازرق الذي اعتليته لم يكن كسابقه من المسارح العادية ، بحياة

عادية ، وبرقصة بلا انبهار . الرقصة الاخيرة كانت لائقة ان تكون الاخيرة ، تمنيت لو تكون محكمتي حول ادائي الجيد ، لكن للأسف هذا مستحيل ، لذلك قررت ان اخلدها على شكل قصة ، وكتبتها بعد ذل لا يوصف لكي احصل على ورقة وقلم وانا في المحجر الافرادي ، وكانوا يطلعون عليها لكي يتأكدوا انها رواية ، ليست خطة حربية يقوم بها رجل حب .

في يوم المحكمة كنت مستعدا لها ، لا انكر الخوف لكن لا يمكن ان لا نواجه مصيرنا ، لابد ان نواجهه بشيء من الشجاعة ، وان نخفي خوفنا الى ما بعد الحكم ، انها كلمة تطلق ثم تسمعها ، ضربة مطرقة مع " رفعت الجلسة "كما في الافلام هي على ارض الواقع جابهها بقوة الممثل ، وكذب الخائن كما في كل كلمة تجبر على مواجهتها .

جررت الى ارض الحكم والقضاء العادل ، كما يسمونها ، كان المشهد مضحكا ، لم يكن في تصوري يوما ان اكون الجاني ، وان يقف امامي قاضي ليسرد علي حقوقي كمجرم ، ويقف المدعي العام ، والمحامي ، لا يمكن تصديق انني طرف في تلك التمثيلية . لكنني كنت .

جلس القاضي وبدأ المحامي والمدعي يتبارزان ، وانا جالس انظر الى هذا والى ذاك ، بصراحة لا يمكن ان انكرها ، ان المدعي العام كان متقنا للدور افضل بألف مرة من المحامي ، الاكبر من ذلك انني اقتنعت انني مجرم ، والضحكة المكتومة في فمي كانت تفلت احيانا مني ، لكن تم النطق بالحكم الاخير القاصم بالقضية ، المنهي لتلك المسرحية القصيرة ، تمنيت لو يأخذوا عليها جائزة نوبل للكذب ، لا اظن انها غير موجودة فهذه المواهب يجب ان تكافئ بشيء من الاهتمام .

الحكم الاخير . كما ذكرت سابقا ان الحكم الاخير عبارة عن كلمة تنطلق بسرعة وتنهي المسرحية ، قد تنهي حياة انسان معها ، من يدري ، قد يكون القارئ احد القادمين الى تلك المسرحية كطرف فيها وليس كمتفرج ، لا متفرج في هذا لنوع من المسارح ، اما ان تكون معي او علي ، لا يمكنك تجاهل موقفك ، لكن يمكنك تجاهل ما سيحدث .

" اعدام " .. كلمة كبيرة ، انهت ما بينها من الكمات ، تكفي لوحدها سيناريو واحد تختنق فيه جميع المشاهد ، لكنها كانت هكذا رماها ببين الاطراف المتصارعة ، ليضع الحد الاخير للمهزلة ، ليسمح للوقت ان يبدأ مهزلة جديدة ، بين وقت الحكم ووقت التنفيذ لتسجيل الخروج .

لا اعلم ماذا كان شعوري ساعة الحكم ، لكنه كان توقعا ، خصوصا انني لم ابق شيئا بلا اعتراف ، والمحامي كان مقصرا في حفظ الكلام ، والمدعي العام حاصل على جائزة للمسرح القضائي ، يبدو انه يأتي الى المسرح كثيرا . في لحظة ما ، تذكرت القاضي الذي لاعبني الشطرنج في المقهى ، كان نادما على حكم شبيه بحالتي عدى ان الكلمة تختلف ، هل ياترى هذا القاضي سيندم مثله على هكذا احكام ، الامر يتعلق بالإنسان الداخلي الذي يعيش في كل منا ، اقصد الضمير ، لكن يبدو ان مهنة القضاء الان لا يوجد فيها غير عديمي الضمير ، ليتم الحكم بلا اثر جانبي ، بغير حبوب يتعاطاها الرجل اخر الليل كي ينام او ان يدمن على الكحول والمخدرات ، الافضل له ان يكون كذلك ، وان لا يكون كالقاضي الذي يلاعب الشطرنج ، وحلم اخر الليل بامرأة ظلمها على حين غفلة ، حتى لا يتردد على المستشفيات للتحليل عن المرض الذي قد يكون الم به . هكذا هي صفات القاضي حاليا .

عدت الى الزنزانة بعد ان سمعت الحكم الاخير ، كان شبه نهائي ، وسيتم ترحيلي حسب ما تم تبليغي به ، لكن لا اعلم متى ، استقبلني السجناء ، رفاق الدرب القصير في السجن ، والاسئلة تتلخص في " أبشر حمامة ام غراب " . انه الغراب ، احدهم سألني باستهزاء معتاد "كم سنة ".

ــ انها بضعة ايام وسأرحل .

ــ براءة ؟؟ ام ..

ـــ نعم ، انه اعدام . ساد صمتهم ، آسفين على ما حل بي لكنني اضفت اليهم السخرية ، فلا مجال في قلبي للنكد اريد شيئا من السعادة قبل الرحيل " هيا هيا انني انتظر احتفال وداع ، لا اريد منكم التعازي ، الافضل ان استعجل الخروج قبل ان اتأخر عن الموعد هناك " .

بدأت اجواء شبه احتفال ، كانوا معتادين على اشكال الفراق التي تحصل ، اكثرهم فقدوا احبتهم بهذه الطريقة ، لم تعد المشاعر تستثار على شيء كهذا ، انه مجرد موت لا شيء جديد . احضروا دجاج ، وبدأوا بالطبخ في زاوية من السجن ، والافراح المصطنعة تتعشش على وجوههم ، كل منهم يخبئ الف دمعة بين جفنية ، لا يمكن اخفاء الغصة التي في قلب كل منهم ، الوداع مؤلم مع علم اللاعودة ، لكنهم تدربوا على الاخفاء مرة بعد مرة ، فقدان بعد فقدان ، واعدام بعد اعدام . لا تزال الحياة لديهم تخبئ مفاجأتها ، رغم الجدران التي طوقتهم ، لا يزال العالم الخارجي يفرض سطوته بين الحين والاخر ، ليريهم البشاعة في كل شيء ، والجمال في منصة الاعدام .

انتهت اجواء الاحتفال في وقت محدد ان ننام فيه جميعنا ، جلس صهيب بجانبي ، للمحادثة الاخيرة بيننا :

ـــ ماهي التهمة التي تستحق كل ذلك يا فارس ؟

ـــ اظن انها الحب ، اظن ان حياتنا عبارة عن موقع للتواصل الجماعي هل تعرفها ؟ كأنك في فترة من العمر ، تسجل دخولك الى العالم ، ليبدأ يشارك معك مفاجأته ، تلاقي فيهم اناس لا يجذبك فيهم غير افكار تنحصر بين زوايا الكلام ، هل تعلم انه لا يمكن الكذب هنا ابدا ، انه لا يمكن تزييف الافكار ، لأنه سوف يحصر في زاوية المعرفة ، لا يمكنه ان يخونك ، لو كانت حياتنا تتلخص في الفيس بوك مثلا ، لكان من الممكن ان تتخلص من الكثير من الغير مرغوبين بهم ، لا تراهم ابدا ، الحب فيها مختلف ، لا يجابهه شكل ، او طول ، او حالة مادية ، لا يمكنك استغلال

صديقك ، يمكنك ان تحتفظ بالكلام ، يمكنك ان تتهرب من الرد ، يمكنك ان تخرج منه مؤقتا ، اما الان ، فعليك ان تخرج الى اللاعودة ، الى الحياة ما بعد الاعدام .

اشعلت سيجارة ، بعد شهيق من الحسرة ، من الاشتياق اليها بلا ذنب يذكر ، بلا اسف على ما عشته معها مهما كانت تراني الان بعد ان خلعت عنها نطاق التكنلوجيا الى ارض الواقع ، لأفرش لها واقعي الاجرامي قلت : يقولون انك تواجه الافكار بالافكار في الحرب ، لا يمكنك ان تقتل المفكرين باستخدام البنادق او التعذيب الافكار يجب ان تهدم بالافكار ، كذلك الحب ، لا يواجهه الا الكره ، الحرب المكروهه او حرب الكراهية ، هل تعلم ان العشاق هم اكثر الناس كرها للحياة ، وكرها للواقع ، لا تؤاخذني هذا مجرد ما تسميه كلام معدوم ، او كلام من على منصة الاعدام ، سوف يتم ترحيلي غدا ، وبعده يتم شنقي لأتأرجح عاريا من الروح في فجر يوم ما ، هكذا انا عشت عاشقا بين الاشعار ، واموت ارهابيا مجرما بين الاشرار .

****

في اليوم التالي تم سحبي الى المقر الجديد ، بعد ان تم تحديد موعد الاعدام ، كان لابد ان يتم استقبالي على اكمل وجه ، لذلك تمت علية الاستقبال بمجموعة جديدة من الجنود مستأنسين بي كسجين جديد يجب عليهم تأهيله ليكون وجهه قابلا للجلوس بين السجناء ، لكنني لم اجلس بينهم ، لأنه تم وضعي في سجن انفرادي ، بجانب البقية المحكوم عليهم بالاعدام . ما ان وضعت في المحجر الانفرادي ، حتى سمعت صوت قبضة تضرب على الحائط " مرحبا جاري ، منذ مدة لم اكلم احدا وغدا سوف اعدم ، كيف انت ؟" .

انه الجار في المصيبة ، والصاحب في المنصة ، انه الصديق الجديد . " مرحبا ، يبدو انهم لا يتركون شيئا بلا استقبال و انهم اهل ضيافة "

ـــ نعم هذا من ما لا شك فيه ، السجن هذا مشهور في ضيافته ، ثم تذكر يا اخي ، انك سوف تعدم ، الا تتركهم يستأنسون بك قليلا .

ـــ نعم ، هذا واجبنا ، اجسامنا سوف تبلى في القبور لم لا نجعل لأنفسنا ذكرى في قلوب الناس في اللحظات الاخيرة .

ـــ قل لي ما اسمك ؟ ما هي جريمتك ؟

ـــ فارس ، ارهاب من الدرجة الرائعة ، قتل وتفجير وانت ؟

ـــ قتل وسرقة بنك بقيمة 5 ملايين دولار . اسمي عمر

ـــ 5 ملايين ، وهل وجودها في بيتك كما وجدوا عدة التفجير في بيتي ؟

ـــ لا لا يعلمون ان هذه الكذبة لا تصلح لانه لا يمكن ان اسرق هذا المبلغ واعيش في غرفة مترين طولا واربعة عرضا ، لكن الناس صدقت ، طردوا امي من البيت او نسميها غرفة ، والحياة الان جميلة هنا ، الاكل هنا مجاني لا تخف .

ـــ كم مضى لك هنا ؟؟

ـــ منذ عشرين يوما ، هذه هي المدة الاعتيادية لأي سجين محكوم بالإعدام ، والان علي ان استعد الى النهاية ، انت ايضا سوف تبقى هذه المدة هنا ، ثم ترحل .

تكلمنا عن الحياة ، عن اجمل ما مر به ، عن التي احبها ، كلمني عن حياته في ليلة لا يريد ان ينام فيها ، بينه وبين المغادرة ساعات ، يمكنه حسابها لا يمكنه ان يتخلى عن اخر فقرات حياته ، رجل يستغل حياته حتى اخر قطرة من الوقت ، اخر ثانية تسكب من جبين الساعة يذكر بها من احبها ، ولم ترفضه رغم فقره ، كيف قرر ان يعمل كي يأتي بها حلالا له في بيته ، كيف بذل الحياة كي يسعد امه ، ثم بسببه تطرد من الغرفة التي كانت بالنسبة لهم بيتا .

ثم ذهب ليلاقي مصيره بين اضلاع الحبل المعلق ، اكاد احلف انني كنت اسمع خطواته تغرد ، اكاد اسمع انه نطق الشهادة ، ثم طار ، لم اره ، كما حدث سابقا معها ، يفصلني عنها التكنلوجيا ، ويفصله عني جدار ، اسمع من خلاله اهوال حياته في ليلة ، ثم اسرد لنفسي اهوال حياتي في ليالي العشرين التي سوف اقضيها منتظرا الموت ، لم يكن لي معه موعد اخر ، موعده ان ينتظرني جانب المنصة ساعة الاعدام ، موعده ان نلتقي بعد الموت ، لكن موعدي معها متى ، الموعد الثاني ، كان في ودي ان اخبرها رغبتي في ذلك الموعد رغبتي ان اسرد انني احبها ، ان اهدي لها ما تتذكرني به ، ان اعيش معها تفاصيل صغيرة في غيابي ، مثلما عاشت تفاصيلها التي كانت باقية في ملامحي ، على طول الاشهر الاحد العشر التي عشناها معا ، كان لا بد لها ان تشق طريقها بعيدا عن المجرم الذي سوف ينال جزائه .

لا يمكنني ان اقول غير ان لبة الحب في فراقه ، ولبة الاكتمال في النقص ، لم يكن لحبي لها ان يتم باي شكل ، انا رجل ارتجل من الحب الى الحرب ، وهي التي ارتجلت من الجمال الى الجمال ، جميلة في فراقها ، انيقة في تفاصيل الوداع ، يليق بها ان تعيش لغيري مع حب لارهابي لقى مصيره ، يليق بها الالوان رغم المسرح الذي استفحل في لونه الازرق ، لازالت في ردائها الاسود ، لكنني حين تعثرت استلمتها الحرب على شكل رجل ، لتخطف مني حلمي قبل الذهاب ، ارتجلت من فقاعة التكنلوجيا لتمنحني فرصة واحدة في الحياة ، كان لابد ان استغل هذه الفرصة ، لكنني لم افعل ، لم يكن القدر لينحني الفرصة الثانية فقد كتب كتابه ، كسفينة تنقذ ركابها مرة واحدا ثم تغرق ، انقذتني من الحياة بشكل حب ، وانتهيت لاغرق بين الاتهامات ، بين ما ارسمه من كذب ، بين النصوص التي وضعت لي بطول الفترة التي مثلت بها ، سردت لي تفاصيل الرقص برقصة واحده ، علمتني انني لم اكن شيئا لولاها ، لم يكن لي ذكرى قبل الموت افرشها في صومعتي وحيدا ، لا جار لي هذه المرة اسامره ، اردت ان اخيم الحياة بيننا على ارصفة الحرف ،

كما بدأت بيننا بحروف ، عليها ان تتذكر انني حتى وقت الموت الذي التف حولي ، كان لابد ان يكون لها حضور .

****

رجائي الاخير اليك ، عندما تفيقي من النوم غدا ، تذكري انني اتأرجح مشنوقا في هذا اليوم بعد ان كنت ذاكرتي .

تمت بحمد الله